بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

٩ صلى الله عليه وسلم

٣٣ صلى الله عليه وسلم

٤٢ تحكم

٤٠ صلى الله عليه وسلم

٤٥ تكفير

٧١ بالأسر (أسطورية)

٩٢ بالأسر (تابعًا)

١٢٨ تفصيل

١٤٦ القدرة

أضواء على
ثقافة المسلم المعاصر

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

رقم الإيداع القانوني

٩٩/١٦٩٧

الترقيم الدولي

977-253-203-4

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

المركز الرئيسي ٢ ش منشا - محرم بك - الإسكندرية. ت: ٤٩٠١٩١٤ - ٤٩٠٧٩٩٨ - ٤٩٠ -

فاكس: ٥٩٥١٦٩٥

يطلب من الدار العربية للتوزيع

١٧ ش توفيق الهلالي - التعاون - فيصل - القاهرة ٣٨٣٢٧٤٧

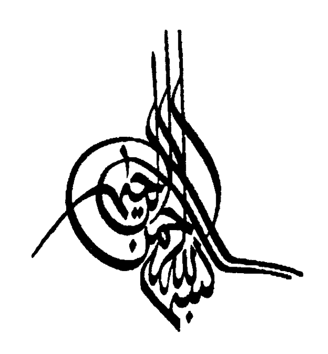
بسم الله الرحمن الرحيم

أضواء علي
ثقافة المسلم المعاصر

١ـ العقيدة الإسلامية في مجال الحوار بين الأديان .
٢ ـ تحصين الهوية الإسلامية إزاء حملات التغريب وأزمات العصر .
٣ ـ التوافق بين الأدلة السمعية والعقلية عند ابن تيمية مع نقده للفلسفة اليونانية.
٤ ـ مقدمة في أصول الدين (علم الكلام) .
٥ ـ الذريعة إلى مكارم الشريعة كما يوضحها الراغب الأصفهاني .

[مجموعة بحوث تتناول ثقافة المسلم المعاصر في نواحيها العقدية والتعبدية والثقافية والحضارية والسلوكية] .

د . مصطفى حلمي
دار العلوم - جامعة القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،

أما بعد

يتعرض العالم الإسلامي لأشد حملات التشويه والطعن لدينه بواسطة البث الإذاعي بالأقمار الصناعية، والمحطات الفضائية الدولية، ولا يدفعها ويبطل مفعولها إلا وسائل مشابهة، وقد أصبح ذلك ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة للأمة الإسلامية، وهي مسئولية الحكومات وأجهزة الإعلام للحفاظ على مقومات الشخصية الإسلامية إزاء سموم الغزو العدائي .

ولكن ما موقفنا كأفراد ومجتمعات؟ هل ننتظر حتى تتحقق تلك الآمال متذرّعين بموقف الحكومات، ومن ثمّ نعلّق المسئولية على الغير؟

يتنافى هذا الموقف السلبي مع أوامر الشرع الذي لا يعفينا من معرفة أحكام الدين، وهي مسئولية فردية لا يُعفى منها أحد، ففي تفسير قوله تعالى ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل:٤٣]، يذكر الإمام ابن حزم أنه فرض على كل أحد طلب ما يلزمه على حساب ما يقدر عليه من الاجتهاد لنفسه في تعرُّف ما ألزمه الله تعالى إيّاه، أي يعرف ما يحل له وما يحرم من المآكل والمشارب والملابس والزواج والدماء والأقوال والأعمال (فهذا كله لا يسع جهله أحداً من الناس)[١] .

وقد أعلن الإمام ابن حزم هذا الرأي أيّام عزة المسلمين وتميُّزهم بالصوت الأعلى! فما موقفنا الآن ونحن نعاني من التلوّث الإعلامي الكريه؟

لا شك أن الأوضاع المتردّية التي أشرنا إليها تحمّل المسلمين - خاصتهم وعامتهم - أعباءً أكبر للتعرّف على دينهم وتخليصه من شوائب التيارات الهادمة .

ونرجو تأدية واجبنا بهذا الكتاب الذي يُلقي الضوء على بعض القضايا التي تهم المسلم المعاصر .

ويتضمن الكتاب خمسة بحوث، بدأنا في **البحث الأول** بشرح مزايا العقائد الإسلامية ليكون المسلم المعاصرعلى بيِّنة من دينه إذا ما دُعِيَ (للحوار بين الأديان)

(١) باختصار من كتاب (الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم جـ٥ ص١١٣ / ١١٤ دار الحديث بالقاهرة، بدون تاريخ .

وهو الشعار المرفوع كبديل لصدام الحضارات .

وتحدثنا في البحث الثاني: عن كيفية تحصين الهويّة الإسلامية إزاء حملات التغريب باجتياز رافدين :

أحدهما : المعرفة بحقيقة حضارة العصر حتى لا يصبح المسلم أسيراً لفتنتها، سائراً وراءها مخدوعاً، فتلقي به إلى هاوية أزماتها الخانقة، وأبشعها فقدان معنى الحياة وهدفها، بحسب وصف بعض فلاسفتها .

والثاني: يرسم طريق المضيّ قُدُماً في التثقيف الذاتي، والإحاطة بأركان الدين وأحكامه.

تحدثنا في البحث الثالث : عن توافق الأدلة السمعية (بالكتاب والسُنّة) مع الأدلة العقلية للحد من الغلوّ في الفكر الفلسفي - قديماً وحديثاً - الظّان بأنه وحده يعرف الحقيقة، ويستأثر بمنهج الوصول إليها .

ويتصل بنفس الغرض المبحث الرابع : الذي يُدعِّم فكرة أن الاكتفاء بمعرفة الإسلام من مصدريه، يُغني عن اللجوء إلى منهج المتكلّمين .

وتَحدَّثنا في البحث الخامس عن منظومة القيم الرفيعة للحضارة الإسلامية كما قدّمها الرّاغب الأصفهاني داخل دوائر ثلاث :

١ - العبودية لله عز وجل وحده .

٢ - تحقيق مقام الخلافة للإنسان المؤمن .

٣ - المبادئ الأخلاقية التي تتسع مجالاتها بين الواقعية والمثالية .

ويُرشدنا الأصفهاني في هذا التصور إلى طريق التنوير الحقيقي - لا الزائف - الذي يريد أصحابه اجتياز طريق حضارة اخرى ضلّت طريقها إلى الله عز وجل .

﴿ .. وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[هود:٨٨]

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في : ٦ رمضان سنة ١٤١٩هـ
٢٥ ديسمبر سنة ١٩٩٨م

(١) العقيدة الإسلامية في مجال الحوار بين الأديان



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد

فإن أول خطوة نراها ضرورية لإتمام الحوار بين الأديان، هي إزاله شوائب سوء الفهم والجهل بالحقائق الأوليه والكف عن إشاعة الذعر ، فإن الطريقة التي اتبعت في تثقيف الأجيال في الغرب – كما يذكر موريس بوكاي فيما يتعلق بالقضايا الدينية شابها الجهل بكل ما يمس الإسلام (وظل الاستعمال السائد حتى اليوم في التسميات مثل « الدين المحمدي » و « المحمديون » ليدل على الرغبة في أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأي الخاطئ القائل بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل جهاد رجل)[1] .صلى الله عليه وسلم

ولا يُعفَى بعض المستشرقين من المسئولية ، فإنهم حشدوا مجموعة من الاخطاء الجسيمة، استنفرت الدكتور عبد الرحمن بدوي، فهبَّ مدافعاً عن القرآن، ملخِّصاً دوافعها لما سمّاه بجراءةٍ جهولة ، أو عمى بصيرة أو اختلاق فرضيات ونظريات زائفة وهميـة، ثم فنَّدها واحداً فواحد، (وخرج القرآن منتصراً على كل هذه الهجمات)[2] .

وزادت وسائل الإعلام الغربية النار اشتعالاً فخلطت بين الإسلام والإرهاب بشكل متميِّز (في الوقت الذي تواجه فيه شعوب ودول العالم الإسلامي ثلاث أزمات واضحة : أزمة هوية ، وأزمة شرعية وأزمة مرجعية)[3] .

ونضيف أيضاً ما لاحظناه من حملات مسعورة نحو الصحوة الإسلامية وحدها، وإغفال متعمد للصحوة الدينية في أنحاء العالم، إذ تصمت أجهزة الإعلام الغربية صمتاً مريباً عن دور الدين الذي يلعبه الآن على المسرح السياسي بأوروبا وأمريكا في علاقته بالعالم الإسلامي بالذات ،بينما الدراسات العلمية الجادة التي تُجرى تباعاً، لتكشف عن هذا التنامي للحركات الدينية بالغرب، ونكتفي بإشارات :منها ما استخلصه الدكتور حامد ربيع – رحمه الله – لكون خروج الدين من قوقعته (التي فرضها عليها الفكر السياسي للثورة الفرنسية .. واليهودية استطاعت أن تخلق

الصهيونية السياسية، ومن خلالها تصل بنا إلى بناء الدولة الإسرائيلية، والكاثوليكية السياسية ظلت في تقدم مستمر)[٤] .

وإذا رجعنا إلى بعض البحوث العلمية نجدها مُجمِعة على قوة التيار الأجنبي الأصولي في أمريكا الذي يقوده بعض كبار رجال الدين هناك أمثال « لندس وفالويل وسواغارت وروبرتستون، وعند حوالي ٤٠ مليون انجيلي أصولي »[٥]، وهم يستمرون في تدعيم إسرائيل وفق عقيدة إيمانية شعارها « المناداة بعودة اليهودية إلى فلسطين كمقدمة حتمية لعودة المسيح المنتظر تبعاً لنبوءات العهد القديم »[٦] .

وبعد هذا التمهيد الذي أزحنا فيه الستار عن بعض جوانب القضية الدينية ، ننتقل إلى توضيح موجز لبعض المعالم البارزة لعقيدة الإسلام بمنهج موضوعي يستند إلى الرغبة في تصحيح المفاهيم ، وإزالة اللبس ، والدعوة إلى الجدل بالتي هي أحسن:

أولاً : التوثيق العلمي للمصادر :

ظهرت في القرن التاسع عشر بأوروبا ثورة ثقافية سُمِّيَت « بظهور فن النقد الأعلى Higher Cristisism » والأثر المباشر لهذا الفن كان « بمثابة اعتراف بالقرآن دون كتب المِلَل الأخرى ككتاب ثابت تاريخياً »[٧] .

إن كل مَن يتتبع خطوات وإجراءات حفظ القرآن حفظاً في الصدور وكتابةً وتدويناً يستطيع أن يستوثق بشكل كامل أنه لا يوجد ثغرة ينفذ منها أي طاعن .

يقول مايكل هارت « والقرآن الكريم نزل على الرسول - ﷺ - كاملاً . وسُجلت آياته وهو مايزال حيّاً، وكان تسجيلاً في منتهى الدقة ، فلم يتغير منه حرف واحد، وليس في المسيحية شيء مثل ذلك ، فلا يوجد كتاب واحد مُحكَم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن الكريم »[٨] .

ومن هنا فلا سبيل أيضاً إلى تشبيهه - كما يقرر الدكتور حسن ظاظا العالم المتخصص في دراسة اليهودية - من قريب أو بعيد بالنصوص المقدسة التي بين أيدي اليهود، فالعهد القديم استغرق أجيالاً من الأنبياء المتعاقبين على طيلة الف سنة

تقريباً، كذلك المشنا والتلمود استغرقتا ألفى سنة « وهي فترة لا يمكن تصويرها مجتمعتين متشابهتين ، أحدهما يلي طرفها الأول والثاني على طرفها الأخير »[٩] .

ولا تسلم الأناجيل أيضاً من المطاعن باستعمال منهج النقد العلمي من حيث اتصال السند والتوثيق ، فإن الإنجيل الأول المنسوب إلى «**مَتَّى**» كتب أولاً باللغة «**الآرمية**» ولكن ليس لدى النصارى منه إلا الترجمة اليونانية بلا معرفة للمترجم وبلا سند كامل متصل « وإنما يأخذون بالظن فيقولون لعله فلان أو فلان ويتمسكون بقرائن لا تجزي مثل اتفاق هذه الكتب في بعض مضامينها وشهادة بعض تابعي الحواريين بوجود بعضها في القرن الأول والثاني ، ثم اشتهارها في أواخر القرن الثاني وابتداء القرن الثالث وهم يعتذرون عن ذلك بأنها كتبت في ظلال السرية بسبب الاضطهادات التي حلّت بأسلافهم »[١٠] .

أما « **لوقا ومرقس** » فلم يريا **المسيح ـ عليه السلام ـ** أصلاً ، أما « **مَتَّى ويوحنا** » فمُختَلَف في رؤيتهما له، والمحققون يُرَجِّحُون عدم الرؤية[١١] .

وقد اتفق كُتَّاب المسائل النصرانية بدائرة المعارف الفرنسية ـ على أن التحقيق العلمي والتاريخي يؤكد أن هذه الأناجيل كتبها أشخاص غير الحواريين والتابعين الذين نُسبَت إليهم [١٢] .

ثانياً: خُلُوّ الإسلام من الكهنوت :

يرجع ظهور الكهنة تاريخياً إلى مرحلة ظهور الأنبياء عند اليهود ، فقد اشترك الكهنة مع الأنبياء حينئذ بادعاء الوحي وتقديم النصائح .

ولكن الفرق بينهما هو بُعد الأنبياء عن المعابد، وانقطاع صلاتهم بالهيكل أو القرابين ويتضح التمييز بأن الكهانة وظيفة تعارض النبوة في كثير من الأوقات [١٣] كما كان النزاع بينهما قائماً دائماً حيث كان الكهنة يحقدون على الأنبياء لتدخلهم في الشئون الدينية محاولين الانفراد بهذا المنصب « وليس الخلاف الذي حدث بين **عيسى ـ عليه السلام** ـ وكهنة الهيكل إلا حلقة من حلقات مماثلة بين الأنبياء والكهنة »[١٤] .

وينتسب الكهنة إلى أبناء ليفي - أحد أبناء يعقوب - عليه السلام - ولا يَصِلُون إلى الكهنوتية إلا بعد تدريبات ومعرفة الطقوس والأسرار الدينية لإثبات الاستحقاق لهذا المنصب ، ومن طريقهم تُقَدَّم القرابين كما تُقَدَّم لهم العشور من نتاج الضأن، وأصبحت ثروتهم مقدسة وشخصيتهم الوسيلة إلى الله ، فصاروا أقوى من الملوك في كثير من الأحوال[١٥] .

هذا ، وقد كان المجتمع الكهنوتي الذي يدير شئون اليهود الواسطة بين الناس وبين الله ، فلا تُقبَل التوبة ولا القرابين إلا إذا باركها الكاهن ، وقد جاء عيسى - عليه السلام - للقضاء على نفوذهم ، ولكن للأسف أصبح القساوسة بعده يمثّلون نفس الدور الذي مثَّله كهنة اليهود من قبل .

وجاء الإسلام ليُبطِل ذلك كله ، واستقرت في العقيدة الإسلامية حقيقة النبوة الصادقة ، حيث أورد القرآن الكريم قصص الأنبياء والرُّسُل وصفاتهم وأخلاقهم ورسالاتهم ، وتحققت في شخصية الرسول « ﷺ » صفات النبي الخاتم .

وبحسب اصطلاح أحد الدارسين لعلم مقارنة الأديان ، يرى أنه « في الإسلام، كل إنسان هو كاهن نفسه، بمجرد أن يكون مسلماً ، هو الإمام والخليفة في عائلته، وهذا انعكاس للجماعة الإسلامية كلها »[١٦] .

ثالثاً: المنهج الاستدلالي للإسلام مستَمَد من مصادره :

بناءً على الدراسة المُستَوعَبَة للأدلة بالكتاب والسنة يستخلص ابن تيمية أن القرآن اشتمل على أصول الدين وعلى البراهين والآيات والأدلة اليقينية، والرسول « ﷺ » أنزل عليه الكتاب والحكمة، والحكمة كما فسَّرَها غير واحد من السلف، هي السُّنة، أو هي معرفة الدين والعمل به، لذلك فإن الكتاب والسُّنة وافيان بجميع أمور الدين[١٧] .

ويعتمد ابن تيمية في استنتاجاته على آيات من الكتاب ، لان الله تعالى علَّم الإنسان البيان ، كما قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَن ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الإنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ

البيان ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ وقال :﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ والبيان : بيان القلب واللسان ، كما ان الصمت والبَكَم في القلب واللسان، كما قال تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ .

والميزان التي أنزلها الله مع كتابه ميزان عادلة ، تتضمن اعتبار الشيء بمثله ، وخلافه - فتسوّي بين المتماثلَيْن وتُفرِّق بين المُخْتَلفَين بما جعله الله في فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثُل والاختلاف .

ولذلك ، يوصف هذا المنهج بأنه شرعي عقلي باعتبار أن الدليل الشرعي مستمَد من الشرع، وأنه متَّفق مع العقل أيضاً . هذا فضلاً عن الصفة الجامعة للشريعة لمصالح الدنيا والآخرة ، فهي جامعة لكل ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا ، والشريعة إنما هي « كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - وما كان عليه سلف الأمة في العقائد والأحوال والعبادات والأعمال والقياسات والأحكام والولايات والعطيات[١٨] وظلت هذه القاعدة المنهجية ثابتة لم تمسّها تقلب الأزمان أو تعاقب العصور حتى عصرنا هذا، فقد قام فى العصر الحديث موريس بوكاي - الطبيب النفسي الفرنسي - بدراسة مضامين الآيات القرآنية المتصلة بظواهر كونية، كخلق السموات والأرض، أو خلق الإنسان وأطوار حياته منذ كونه جنيناً فى بطن أمه، أو ممالك النبات والحيوان و الطيور والحشرات أو الأرض بجبالها ووديانها وأنهارها ومحيطاتها وبحارها . واستخلص بوكاى من دراسته توافق القرآن مع معطيات العلم الحديث، مستبعداً تماماً اتصالها بمعلومات عصر التنزيل، و مؤكداً بالأدلة أنها تتضّمن ما عرفه العلماء المتخصصون - كلٌ فى مجاله - فى العصر الحديث، و بذلك أصبح الاستدلال بالقرآن الكريم نفسه من أنسب الطرق - بل أفضلها - للنفاذ إلى عقول أهل العصر الحاضر الذى يحتل فيه العلم ومنجزاته النصيب الوافر فى حياة الإنسان .يقول بوكاى (إن أول ما يثير الدهشة فى روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق وعلم الفلك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالرزض ، وعالم الحيوان و عالم النبات

والتناسل الإنساني. وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ. وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنساناً، كيف استطاع في القرن السابع الميلادي من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟[١٩] أما الدارس لتاريخ النصرانية العقائدي فسيقف على منهج مخالف تماماً، إذ اعتمد رجال الكنيسة على الفلسفة اليونانية لشرح العقائد النصرانية :ففي كتاب (من سقراط إلى سارتر)، يقول المؤلفان :فالكتب المقدسة أصبحت تؤيدها تعاليم أرسطو « ذلك المسيحي الميتافيزيقي الذي لم يسمع بالميسيحية قط »، ويقصدان بذلك أن المسيحيين - وفي مقدمتهم القديس توما الأكويني - ألبسوه ثوب العقيدة، أو أنهم غلّفوا العقيدة النصرانية بفلسفته، وهذا بالضبط ما عيناه بقولهما في الفقرة التالية من الكتاب نفسه. (لقد جيء بفلسفه أرسطو من العالم الوثني إلى العالم المسيحي لتثبيت العقيدة الأساسية للفقه الكاثوليكي .. إن الأقنوم الثاني (الكلمة) قد تجسّد في المسيح، فالصورة عند أرسطو هي ألوهية المسيح، والمادة عند أرسطو هي (لحمه) ويؤكد وجود الله (تعالى) لا عن طريق الإيمان القلبي بل عن طريق العقل ... إنه الفيلسوف القدّيس يذود عن الدين بقوة البراهين الفلسفية)[٢٠].

كذلك يذكر بارتولد أن مبشري النصارى اضطُرّوا إلى استخدام الأدلة الفلسفية في نزاعهم مع الفلسفة الوثنية والفلسفة الغنوستية « فظهرت مذاهب دينية فلسفية متنوعة كان أعظمها في الإسكندرية وأنطاكية، فأما الذي في أنطاكية فيعتمد على أرسطو وأما الذي في الإسكندرية فيعتمد على أفلاطون »[٢١].

رابعاً: المسلمون دينهم واحد:

ويعني بذلك اتفاقهم على معرفة أصوله وأركانه وفرض العمل بها، وربما لا يعرف المسلمون هذه الميزة في دينهم إلا إذا قارنوا بين تصورهم لدينهم وتعريفهم له مع اختلاف مذاهبهم الفقهية وبين عقائد النصارى، فقد ظلت الحضارة الغربية

محصورة وراء قضبان المفاهيم الدينية التي عرفتها منذ اليونان وهي :

١ ـ دين اليونان والرومان

٢ ـ النصرانية .

٣ ـ دين الإصلاح وهو وصف لما أدخله لوثر على النصرانية .

٤ ـ الدين الطبيعي من اختراع أوجست كونت وسُمِّي[٢٢] أيضاً بمذهب الألوهية الطبيعية ، أي إقامة عقيدة على أساس طبيعي بالاستغناء عن الوحي والتعاليم المنزلة .

وقد انعكست آثار هذا الخليط على التصورات والمفاهيم للدين مما يجعله مجموعة من الأفكار والنظريات تتزاحم فيه الموروثات من المجتمعات الوثنية اليونانية، وزادها غموضاً اختلاف النصارى في تصورهم للألوهية، والقصور في تعريف النبوة وتقديرها حق قدرها، ثم الانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية بواسطة مارتن لوثر وكالفن وتعدد الأناجيل .

ولا نعثر على تلك العقبات في طريقنا للبحث في الإسلام، إذ لو أزاح الباحث عن نفسه عقبات العقائد الموروثة ، ونحَّى عنها التعصب الديني، وتحرر للبحث عن الحقيقة بإخلاص، فسيسهل عليه الوقوف عليها من أكثر الطرق، لأنه بالرغم من تنوُّع طرق المسلمين ومذاهبهم ـ كما يذكر ابن تيمية ـ إلا أن دينهم واحد، كلٌّ منهم يعتقد ما يعتقده الآخر ، و يعبده بالدين الذي يعبده، ويسوغ أحدهما للآخر أن يعمل بما تنازع فيه من الفروع .. وتلخيص الأمر في هذا المقام إنما هو تفضيل قول وعمل على قول وعمل ، بالأقوال والأعمال المختلفة لابد فيها من تفضيل بعضها على بعض عند جمهور الأمة [٢٣] .

ونأتي بشهادة نصر بين يحيى المهتدى للا سلام، ـ وكان قسيساً ـ إذ تحقق بنفسه أن اختلاف المسلمين يقتصر على فروع الدين، بعد اتفاق جماعتهم على إلاههم ومعبودهم ، وأنه ـ عز وجل ـ واحد لا شريك له ولا ولد له، خالق الخلق كلهم، ثم اتفاقهم على نبيهم ـ محمد ﷺ ـ وعلى القرآن المجيد، وأنه كتاب الله المنزَّل على

نبيه ، لا يختلفون في ذلك « فإذا صحَّ اتفاقهم على هذه الأصول كان ما سواها سهلاً لا يقع معه كفر ولا يبطل به دين وإنما البلاء العظيم الاختلاف في المعبود »[٢٤] .

خامساً : ازدهار العقيدة الإسلامية في ضوء الاكتشافات العلمية :

أحدث المذهب المادي بسبب سلطان النظام الماركسي بعض البلبلة الفكرية في نظرية المعرفة ، إذ افترض أن المادة الظاهرة أمامنا هي الحقيقة النهائية أو الوحيدة ولكن سرعان ما أسفرت البحوث العلمية عن تهافت هذا الفرض أمام عدّة براهين ، نكتفي منها باثنين :

١ - تطور الوسائل العلمية في البحث ، واستخدام المخترعات الحديثة التي ضاعفت قدرات الأسماع والأبصار - كاللاسلكي و التلسكوب والمجهر - فتضاعفت الموجودات عمّا كان يعرفها الإنسان بإدراكاته الحسّية الفطرية وحدها ، وفي هذا المجال يقول د. أحمد زويل « يقسّم علماء الكمياء والفيزياء الكائنات إلى كائنات مرئية وكائنات غير مرئية ، الكائنات المرئية هي التي يمكن رؤيتها ولو باستخدام الأجهزة العلمية الدقيقة . . والكائنات الغير المرئية هي التي لا يمكن رؤيتها رغم اعتراف العلم بوجود حياة في هذه الكائنات لوجود أثر تدل عليه ، فهي تتحرك وتتناسل وتموت . . . » . . إلى أن يقول « واستطعت تصوير حركة **(الجزئ)** التي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الجُزِئ كائن حي يعيش ويتنفس ويتحرك » ، أي أنه أثبت وجود حياة في الجُزِئ باعتباره أهم مكوِّنات الحياة وأصل **« المادة »** . .[٢٥] .

وبهذا البرهان القطعي تحوّلت المادية إلى **« خرافة »** !

كذلك أثبت العلماء المتخصصون بتجاربهم « أن الحقيقة في شكلها الأخير غير قابلة للمشاهدة ، ويمكن أن تُستنبط مظاهرها فقط »[٢٦] ، ويقرّب لنا أحد العلماء هذا التصور بما تنص عليه الحقيقة الخامسة في ميكانيكا الكم ، أن « العالم يخضع لنوع من التفسير المنطقي مغاير للتفسير البشري له »[٢٧] .

٢ - الاتجاه الملاحظ في التاريخ العلمي ، وخلاصته أن القضايا العلمية أخذت منذ

بداية هذا القرن طابع العموميات، وأصبحت النظريات المعتمدة سابقاً على الفرضيات والإدراكات الحسِّية حالات خاصة ضمن نظريات أعم وأكثر شمولية، ويقول الدكتور / محمد الحسيني بعد سرده للتاريخ العلمي للنظريات « فهناك إيمان الآن يكاد يكون مشتركاً بين جميع علماء الفيزياء بأننا نتجه بُخطى واضحة نحو نظرية شمولية واحدة كافية لتفسير جميع الظواهر أو الحقائق الكونية بل أصبحت تأخذ طابعاً غيبياً بدرجة كبيرة »[٢٨] .

ومادام العلم قد أثبت استحالة مشاهدة الحقيقة في شكلها الأخير ، فإن ذلك يقوِّض دعائم المذهب المادي من أساسه ، ويعضد عقيدة الإسلام بالإقرار بأن الإنسان لا يمكن أن يشاهد الله ـ عز وجل ـ أو عالم الآخرة في الحياة الدنيا .

ونأتي أخيراً بشهادة أحد علماء الفيزياء المرموقين حيث يشرح فكرة الخلق من العدم بأسلوب علمي ، فيقرِّر أن عدداً متزايداً من علماء الكونيات يعتقدون اليوم أن القيمة الأكثر احتمالاً لكثافة المادة والطاقة في الكون هو القول بأن كتلة الكون تنتهي في مجموعها إلى الصفر على وجه التحديد ، ويضيف إلى ذلك أنه « إذا كانت كتلة الكون هي الصفر فعلاً وهي يمكن التحقق منها امبريقياً « تجريبياً » فإن الكون يشارك حالة الخواء ـ أي خاصية (انعدام الكتلة) وظهر منذ عشر سنوات استقراء جود الذي يعتبر أن الكون عبارة عن تقلبات كمية للخواء ، وهي حالة من اللاشيئية في المكان والزمان خُلِقَت من العدم »[٢٩] .

وهكذا جاءت الكشوف العلمية كالبيِّنات ، تفتح أعيننا على هذه الحقائق ، وتمد العقائد الإسلامية بما يؤهلها للنفاذ إلى عقل الإنسان وهو يستقبل القرن الواحد والعشرين لها .

سادساً: حقيقة النبوة ودلائل صدق نبينا محمد (ﷺ) :

وسنتوسع في شرح الاستدلال على صدق نبوة نبينا محمد (ﷺ) ، لكن نشير فقط هنا إلى أمرين :-

أ ـ إحدى بشارات الكتاب المقدس :

فقد ورد بإنجيل يوحنا أن المسيح ـ عليه السلام ـ قال « إن أركون العالم سيأتي، وليس لي شئ » .

والأركون بلغتهم ـ كما يَذكر ابن تيمية ـ عظيم القدر، فقول المسيح عليه السلام « أركون العالم » إنما ينطبق على عظيم العالم، وسيد العالم ، وكبير العالم .

ب ـ دوره « ﷺ » في تغيير العالم :

ومن المعلوم باتفاق أهل الأرض ـ كما يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه لم يأت بعد المسيح من ساد العالم، باطناً وظاهراً، وانقادت له القلوب والأجساد، وأطيع في السر والعلانية، في محياه وبعد مماته، في جميع الأعصار وأفضل الأقاليم شرقاً وغرباً أحد غير محمد « ﷺ » ، فإن الملوك يطاعون ظاهراً لا باطناً، ولا يطاعون بعد موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعة يرجون بها ثواب الله في الدار الآخرة ، ويخافون عقاب الله في الدار الآخرة ، بخلاف الأنبياء وربما يأتي معارضون ليقولوا: إن وصف ابن تيمية صحيح في عصره وما قبله حيث ساد المسلمون العالم عسكرياً وحضارياً وثقافياً ونفوذاً، فأين هم الآن ؟

وقد أجاب ابن تيمية ضمناً على هذا التعليق في تفسيره لقوله تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾[الفتح الآية : ٢٨]

ورأى شيخ الإسلام أن ظهوره على الدين كله بالعلم والحجة والبيان، إنما هو بما يظهره من آياته وبراهينه، وذلك إنما يتم بالعلم بما ينقل على محمد « ﷺ » من آياته التي هي الأدلة، وشرائعه التي هي المدلول، والمقصود بالأدلة، فهذا قد أظهره الله علماً وحجة وبياناً على كل دين، كما أظهره قوة ونصرا وتأييداً على كل دين [1] .

أما قوله : « لم يأت بعد المسيح من ساد العالم، باطناً وظاهراً وانقادت له القلوب والأجساد . . . إلخ

---

(١) الجواب الصحيح جـ٤ ص٢٤٣ .

فقد تأيّد بالمنهج الذي اتبعه الباحث الأمريكي مايكل هارت بكتابه « الخالدون مائة - أعظمهم محمد - ﷺ -» حيث أجاب بدوره على الدهشة التي سيبديها البعض بوضعه للرسول ﷺ على رأس القائمة فقال « وربما شيئاً غريباً حقاً - أن يكون الرسول ﷺ - في رأس هذه القائمة، رغم أن عدد المسيحيين ضعف عدد المسلمين ، وربما غريبا أن يكون الرسول - عليه السلام - هو رقم واحد في هذه القائمة، بينما عيسى عليه السلام هو رقم ٣ وموسى عليه السلام رقم ١٦ .

ولكن لذلك أسباب، من بينها أن الرسول « ﷺ » قد كان دوره أخطر وأعظم في نشر الإسلام وتدعيمه وإرساء قواعد شريعته أكثر مما كان لعيسى عليه السلام في الديانة المسيحية، وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسئول عن مبادئ الأخلاق وهو أيضاً المسئول عن كتابة الكثير مما جاء في كتب « العهد الجديد » .

أمّا الرسول « ﷺ » فهو المسئول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصوله الشرعية والسلوك الاجتماعي والأخلاق وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية والدنيوية كما أن القرآن الكريم قد نزل عليه وحده وفي القرآن الكريم وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه في دنياهم وآخرتهم [١] .

والكلام عن النبوة متشعب المسالك والطرق يقتضي الحديث عن التعريف بأنبياء الله تعالى ورسله وأدلة صدقهم وطبيعة رسالتهم وشرائعهم والحكمة من بعثهم والتمييز بينهم وبين الأنبياء الكذبة أو الكهنة وغير ذلك من قضايا أخذت مكانتها في كتب علماء المسلمين كأحد المداخل الرئيسية لمنهج دراسة الأديان والعقائد .

ولعل المختصر الذي أورده نجم الدين البغدادي (٧١٦هـ) يغنينا عن الإسهاب حيث عالج فيه :

١- حقيقة النبوة ، فإنها وحي صادق نافع للناس تكشف عن الغيب الذي يعجز الإنسان بقدراته وملكاته الذهنية عن معرفته .

---

(١) ص١٧ من كتاب (الخالدون مائة) ترجمة أنيس منصور المكتب المصري الحديث بالقاهرة ١٩٨٤م .

٢ـ وجودها : فلا منازع فيه عند أهل الملل الثلاث حيث ان الله تعالى أنعم على عباده بالنعم الكثيرة، وكلها دالة على رحمته وحكمته وعنايته، كوضع الحواس الخمس وباقي الأعضاء في جسم الإنسان مثلاً ، فإن إرسال من يهديهم إلى طريق السعادة الأبدية ، ويكف شر بعض بني آدم عن بعض لينظم أمرهم ـ أوْلى .

وما دل عليه التواتر أن جماعة من الرجال أعلنوا أنهم رسل الله تعالى وأيّدوا ذلك بمعجزات ظهرت على أيديهم .

فإذا ثبت بهاتين الحجتين إثبات نبوة الأنبياء والرسل فهما بعينهما تثبتان نبوة محمد « ﷺ » .

ويضيف إلى ذلك البغدادي قوله :« أما الأولى فلأنه بُعث على فترة من الرسل طويلة، وقد أكل العالم بعضه بعضاً خصوصاً العرب في جاهليتها وغاراتها ـ وكانوا يعبدون الأوثان، والنصارى : الصلبان، والفرس : النيران ، وغير ذلك من المنكرات، فأزال الله به ذلك وأبدل الناس به خير ما ينبغي .. وأما الثانية : فلأنه ثبت بالتواتر الكامل الشروط ـ أنه عليه السلام ـ أدعى للنبوة وظهرت على يديه معجزات خارقة... ثم توفى « ﷺ » على أوضح سنن، وأظهر طريقة ، وأزكاها وأزهدها في الدنيا، ودعى الناس إلى ذلك.. »[1] .

وقد عرض ابن تيمية للمعاني المتعددة لكلمة (**الفارقليط**) ، ليستخلص منها أنها كلها تنطبق على نبينا « ﷺ » .

فإن معنى « الفارقليط » إن كان هو الحامد أو الحمّاد أو الحمد أو المُعزّ فهذا الوصف ظاهر في محمد « ﷺ » فإنه وأمته الحمّادون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد والحمد مفتاح خطبته ومفتاح صلاته .

وأما من فسره بالمعز فلم يعرف قط نبي أعز أهل التوحيد لله والإيمان كما أعزهم

---

(١) الانتصارات الإسلامية ـ في علم مقارنة الأديان ـ لنجم الدين البغدادي الطوفي ص٤٩ دراسة وتحقيق د. أحمد حجازي السقا دار البيان بمصر ١٩٨٣م .

محمد «ﷺ» فهو أحق باسم المعزّ من كل إنسان .

وأما معنى المخلّص ، فهو أيضاً ظاهر فيه فإن المسيح هو المخلص الأول ، كما ذكر في الإنجيل ، وهو معروف عند النصارى أن المسيح صلوات الله عليه قد سمي مخلصاً، فيكون المسيح هو الفارقليط الأول ، وقد بشّر بفارقليط آخر فإنه قال (وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر ، يثبت معكم إلى الأبد) فهذا بشارة بمخلص ثانٍ يثبت معهم إلى الأبد ، والمسيح هو المخلص الأول »[1] .

محرم سنة ١٤١٩هـ

وبالله التوفيق

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح جـ٤ ص١٦ ط المدني بمصر



المراجع

١ ـ القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص٦ .

(دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) موريس بوكاي ط دار المعارف بمصر١٩٧٩م .

٢ـ الدفاع عن القرآن ضد منتقديه ، د/ عبدالرحمن بدوي ص٩ مكتبة مدبولي الصغير بمصر١٩٩٨ م .

للدكتور بدوي كتاب ثانٍ عن « الدفاع عن محمد ـ ﷺ ـ » .

٣ ـ (صراع الحضارات أم حوار الثقافات) ص٢١-٢٢ تحرير د. فخري لبيب ـ القاهرة ١٠-١٢ مارس ١٩٩٧م

منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الأسيوية .

٤ ـ الإسلام والقوى الدولية ، د. حامد ربيع ص٣٤

ط دار الموقف العرب ـ القاهرة ١٩٨١

ويُنظر أيضاً كتاب (الدين والدولة في الواقع الغربي) دراسة لموقع الدين في الدولة القومية د. عبدالعزيز صقر

دار ومكتبة العلم للجميع بالقاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

٥ ـ النبوءة والسياسة ، جريس هالسل ص١٩

(الإنجيليون العسكريون في الطريق إلى الحرب النووية)

ترجمة محمد السمَّاك ـ دار الشروق ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

٦ـ الصهيونية غير اليهودية ـ رجينا الشريف ص٥٤ ـ ٥٥

ترجمة أحمد عبدالعزيز .

سلسلة « عالم المعرفة » بالكويت ربيع الأول ١٤٠٦هـ / ديسمبر ١٩٨٥م

ويُنظر أيضاً كتاب (البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني) .

د. يوسف الحسن - مركز دراسات الوحدة العربية
سلسلة أطروحات الدكتوراه - بيروت - فبراير ١٩٩٠م.
٧ - واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام ، وحيد الدين حامد ص٢٥٧
ترجمة د. سمير عبدالحميد - دار الصحوة بالقاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .
٨ - (الخالدون مائة ، أعظمهم محمد - ﷺ -) ترجمة أنيس منصور ص١٧ المكتب المصري الحديث بالقاهرة ١٩٨٤م .
٩ - الفكر الديني اليهودي ، أطواره ومذاهبه ص١٣٠
د. حسن ظاظا - دار القلم - دمشق دار العلوم والثقافة بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١٠ - (الكتب المقدسة في ميزان التوثيق) عبدالوهاب طويلة ص١٣٢-١٣٣
ط دار السلام بالقاهرة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م .
١١ - نفسه ص ١٣٤ .
١٢ - نفسه ص ١٣٥ .
١٣ - أبو الأنبياء - عليه السلام - للعقاد « كتاب اليوم » ١٩٥٣م .
١٤ - اليهودية - مقارنة الأديان د. أحمد شلبي ص٢٠٢ .
مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٨م .
١٥ - نفسه ص٢٠٣ باختصار .
ويُنظر (عبقرية المسيح) للعقاد ص٢٧ كتاب العدد ٣١٧ يناير ١٩٩١م .
١٦ - الإيمان والإسلام والإحسان في مقارنة الأديان ، فرتجوف شيئون ص٧٢
ترجمة نهاد خياطة - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .
١٧ - مجموعة فتاوى ابن تيمية جـ١٩ ص١٦٩ وما بعدها باختصار .
١٨ - نفسه ص٣٠٨ .
١٩ - القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاي - دار المعارف بمصر ١٩٧٩م

٢٠ ـ من سقراط إلى سارتر ، هنري توماس ودانالي توماس ص١٠٠ ،١٠٤، ١٠٧ ترجمة عثمان نويّه ط الأنجلو المصرية ١٩٧٠م .

٢١ ـ تاريخ الحضارة الإسلامية ف . بارتولد ص٤٧ ترجمة حمزه طاهر ط دار المعارف بمصر١٩٨٣م .

٢٢ ـ الإسلام تشكيل جديد للحضارة ـ للأميني ص٢١، ٣٤ ترجمة د/ مقتدى حسن ياسين مراجعة د. عبدالحليم عويس دار العلوم بالرياض ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٢٣ ـ دقائق التفسير جـ٢ ص٣٢٦ جمع وتحقيق د. محمد الجليند دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٢٤ ـ النصيحة الإيمانية ، نصر بن يحيى ص٥٥ تقديم وتحقيق د/ أحمد حجازي السقا مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

٢٥ ـ مقال بعنوان (العالم المصري العالمي أحمد زويل يعيد أمجاد حضارة العرب الزاهرة : اكتشف زمناً غير زماننا المعهود حصل به على أكبر وسام علمي في العالم بقلم محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني ص٣٠ مجلة التصوف الإسلامي محرم ١٤١٩هـ/ مايو ١٩٩٨م .

٢٦ ـ واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام ، وحيد الدين حامد ص٢٤٦ .

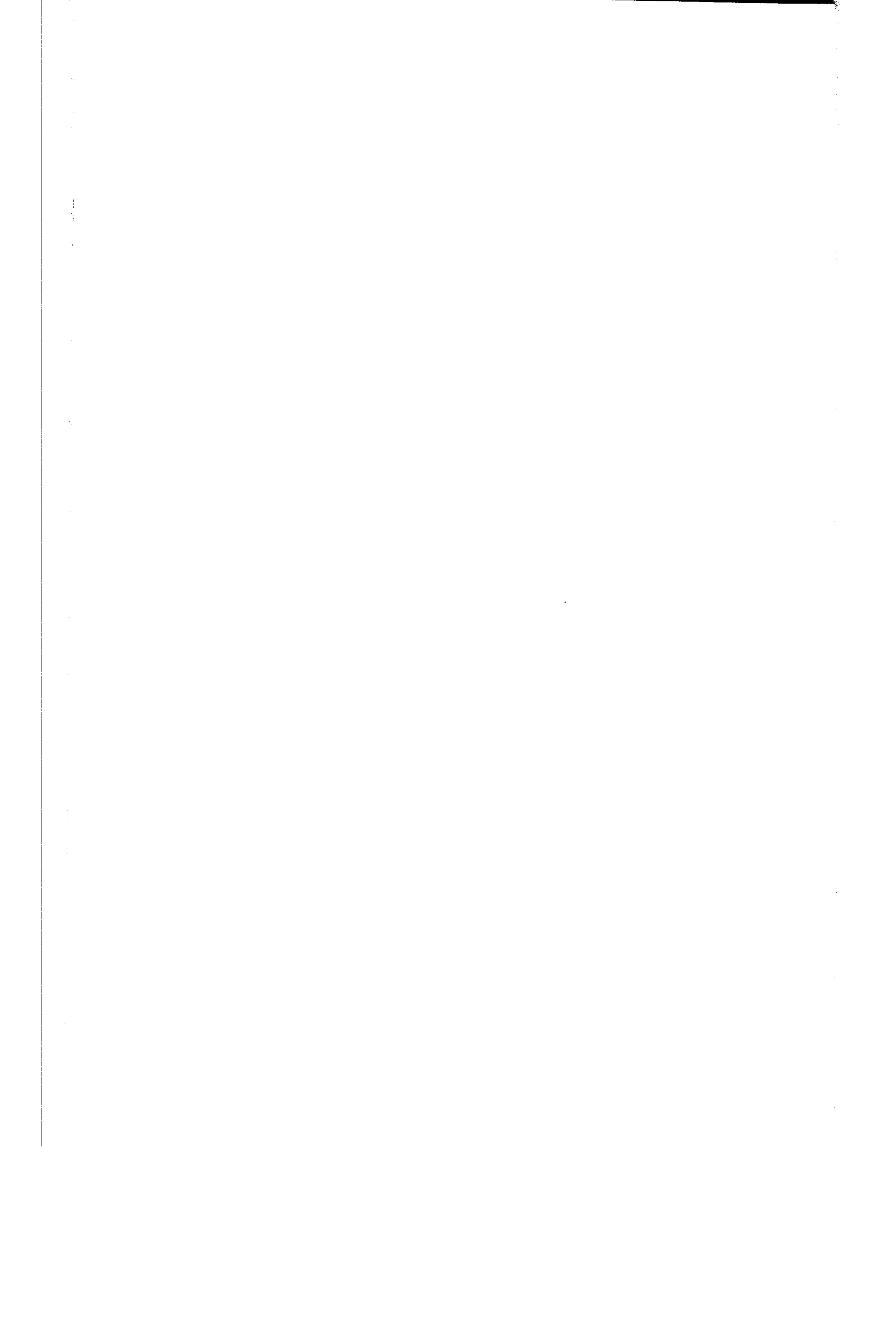
٢٧ ـ الحقيقة المطلقة : الله والدين والإنسان ص١٢٣ .

د . مهندس محمد الحسيني إسماعيل ـ مطابع الأزهر ١٩٩٥م .

٢٨ ـ نفسه .

٢٩ ـ المسلمون والعلم د. محمد عبدالسلام (حائز على جائزة نوبل) ترجمة د.ممدوح كامل الموصلي ـ كتاب الغد بالقاهرة ١٩٨٦م .

(٢) تحصين الهوية الإسلامية إزاء حملات التغريب وأزمات العصر



الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد :

فإن هذا البحث ليس محاولة لإعطاء فكرة كاملة عن (ثقافة المسلم المعاصر) فحسب ، وإنما يسعى لتحقيق بعض أهم الأهداف المتصلة بالموضوع وهي :

أولاً : تحقيق الذات في مشروع النهضة الإسلامية المعاصرة :

ويتطلب ذلك توجيه العناية إلى الأولويات في مشروع النهضة الإسلامية المعاصرة مع مجابهة التحديات التي تحاصر الأمة الإسلامية ، وذلك عن اقتناع بالرأي القائل بأن « جوهر التحديث هو تحقيق الذات بالمعنى الحضاري ... ويتحقق بتوظيف طاقة الإيمان والانتماء الحضاري ، وإيقاظ القوى الموحدة في النسيج الاجتماعي الحضاري للمجتمع »[1] - بل للأمة أيضاً - ، فإن العالم الإسلامي لا يشعر بوحدته إلا بالإسلام . يؤيد ذلك التجربة التاريخيةالواقعية التي تشع بالدليل أمام دارسي الحضارات إذ قامت الحضارة الإسلامية في رقعة موزعة :

حدها الشمالي مدينة الرها ، والجنوبي سوريا وفلسطين ، وتحد من الشرق بالمنطقة التي سيطرت عليها المزدكية ....وفي أقصى الجنوب تحد بتلك البيئة التي ستكون مهد الإسلام ، وأخيراً في أقصى الشمال تقع مدينة بيزنطة ... « هذا العالم المختلط المشتت المتشعب الأطراف لم يستطع أن يشعر بوحدته إلا على يد الإسلام »[2] .

وفي ضوء هذه الحقيقة ، ينبغي على المسلم المعاصر أن يوقن بإمكان ازدهار حضارته من جديد بالرغم من أحوال الأمة السيئة .

يقول الكاتب السويسري المهتدي للإسلام (روجيه باسكويه) : « أظهر العالم الإسلامي جموداً باعثاً على الأسى في مقابل المد الأوروبي في كل المجالات، ولكن مهما أصبحت (الشعوب الإسلامية) خاملة ناعسة ، فإنها بقيت مخلصة للإسلام... فقدت بكل تأكيد كل مفاتيح القوة الدنيوية ، ولكن احتفظت بمفاتيح

السماء»[٣] . ويعلل ذلك بأن الثقافة الإسلامية تمتاز عن غيرها من الثقافات بأنها نبعت مباشرة من التنزيل « أي من الحقيقة الخالدة السامية ، وليس من تأملات أو اجتهادات الفلاسفة والمفكرين »[٤] .

ثانياً : تحصين الهوية الإسلامية إزاء حملات التغريب وأزمات العصر :

يطول الحديث عن حملات التغريب ـ أو الغزو الفكري ـ ولكننا نلخصه من حيث آثاره في الإنسان من جهتين :

١ ـ ما يطلق عليه (غسيل المخ) وهو حسب تعريف الدكتور زكي نجيب محمود أن :

« يتحكم من أراد أن يتحكم في تفريغ مخ الإنسان من محتواه .. لتعبئته بمحتوى آخر وفي تشكيل سلوكه بعبارات جديدة غير عاداته السابقة »[٥] ، وكان يحدث ذلك لأسرى الحرب وهو ما يحدث شيء منه بطريق الدعاية ووسائل الإعلام .

٢ ـ شحن الإنسان بالشحنة الفكرية والسلوكية :

وما نقصده بالعصر: الحضارة التي تسوده ـ فإنه عصر متغرب ، كذلك ما يتعاقب فيه من وقائع وأحداث سلماً وحرباً ، وما تنتجه قرائح علمائه وفلاسفته من مذاهب ونظريات في ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية والأخلاق والآداب والفنون وما تظهر فيه الاكتشافات المتوالية في مجالات الطب والزراعة والصناعات وعلوم الفضاء، وكذلك آثار علاقات الدول ومنافساتها وحروبها، وما أصاب الأمة الإسلامية من محن وكوارث وأزمات ، وتداعيات. ذلك كله على المسلم المعاصر ، فإن « الأزمة التي تأخذ بخناق العالم الإسلامي والعربي بجوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية والاجتماعية جعلت الناس أكثر اتجاهاً لدينهم يستلهمونه الحلول »[٦] .

وفي ظل التقدم المتواصل في وسائل الاتصال اليوم ، أصبحت اليد الطولى في عصرنا للأعلى صوتاً ، لا للأقوى حجة ، بفعل أجهزة الإعلام الجبَّارة التي لم يعرف لها العالم مثيلاً من قبل ، وأصبح في قدرة من يملكها فرض ثقافته على الآخرين في ظل ما يسمى **(بالعولمة)** . ويصف الكاتب الفرنسي لاتوش مايسميه (بالعولمة

المباشرة) بأنها تتجاور (النزعة القومية) ، ويصفها بأنها (تشكل التدفقات الإعلامية بواسطة الأقمار الصناعية للاتصالات البعيدة وتقنية معالجة المعلومات بالكمبيوتر تشكل رغبات وحاجات وأشكال سلوك وعقليات ونظم تعليم وأنماط حياة المتقبلين، وينتج عنها - وهذا ما يعنينا هنا ببحثنا - « فقدان الهوية الثقافية المؤكد، كما يسهم في زعزعة الهوية القومية سياسياً واقتصادياً ، وحتى ما يتبقى من الإبداعية القومية، يجد نفسه في حالة تبعية إزاء ثقافة أجنبية » .

ويأتي وصف جاك إلول لهذا الواقع أكثر صراحة وصدقاً : فيقول :« بفضل أروع وسائل النشر الممكنة ، يجرى اليوم نشر ثقافة يمكن القول عنها في أفضل الأحوال أنها غياب للثقافة ، وتم إنتاجها عشوائياً »[٧] . ويؤكد ذلك أيضاً الدكتور - مراد هوفمان : « فقد ربح الغرب سباق الإعلام من زمان ، ليعرض أفكاره على المسلمين بالجملة ، ويتحكم في حياتهم كالطاعون »[٨] .

وهل نشك بعد هذا التحليل الواقعي الصريح الذي نلمس آثاره ليل نهار ، هل نشك بأن الغزو الثقافي هو فعلاً - كما وصفه د. حامد ربيع - حرب فكرية ؟

ولكن . ماذا أعددنا لها ؟ وماذا فعلنا لكي نجعل المسلم المعاصر يصمد في هذه الحرب ؟ يقول الدكتور حامد ربيع : « وككل صراع ، فإن المقاومة تفترض من جانب التقوية الذاتية لأنه طالما أن الجسد المصارع ضعيف ، فإن أي صدمة من الخارج قادرة على أن تنال منه ، ومن جانب آخر ، علينا أن نتذكر أن خير وسيلة للدفاع هي البدء بالهجوم »[٩] .

إن أول أسلحة الصمود - أو الذاتية - بناء على الآيات والآحاديث التي تكاد تفوق الحصر - هي الاستمساك بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله « ﷺ » .

أخرج مسلم عن جابر بن عبدالله أن رسول الله « ﷺ » كان يقول في خطبته : « أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة »[١٠] .

ونعود إلى اقتراح الدكتور حامد ربيع(خير وسيلة للدفاع هي البدء بالهجوم) فإنه لا يقصد الهجوم العسكري في ساحات القتال قطعاً ، ولكنه ـ في هذا المجال الثقافي ـ تأكيد الثقة في النفس حتى تتحول من حالة (القابلية للاستعمار) التي حذَّر منها الأستاذ/ مالك بن نبي ، إلى حالة إيجابية ـ وكأنها تأخذ المبادرة بالهجوم ، وذلكم بمعرفة أوجه النقص في هذه الحضارة وأزماتها ـ هذا هو السلاح الأول .

أما السلاح الثاني فإنه بمقدورنا ـ لو فهمنا تراثنا حق الفهم ـ أن نؤدي دورنا كما يرى د. زكي نجيب محمود ـ في بناء الحضارة المعاصرة :

١ ـ وأول الأسلحة الهجومية في تلك المعركة الثقافية هي معرفة الوجه الآخر للحضارة المعاصرة، أي الأزمات الخانقة التي تعانيها بشهادة علمائها وفلاسفتها الحريصين على بقائها ، فقد جمعت د/ أدريين كوخ ـ أستاذة التاريخ بجامعة كاليفورنيا آراء بعضهم في كتابها بعنوان (آراء فلسفية في أزمة العصر)، وسجلت انزعاجها الشديد بالمقدمة، فكتبت (هذا القرن الفظيع : من ذا الذي يتدبر مسيره وتاريخه ولا يحكم عليه بالفظاعة ؟! ومن ذا الذي ينكر أن الثقة التي كانت تملأ نفوساً عن مطلعه قد زالت من النفوس ؟) ، ثم تستطرد في كلام طويل منتهية إلى وصف الأمة بأنها أعمق وأوسع انتشاراً من أية أزمة أخرى عرفها تاريخ الإنسان ، لأنها أزمة الوجود البشري ذاته »[11] .

وقد أجاد هايجر ـ عميد فلاسفة القرن العشرين ـ في وصف حال هذا العصر « بأنه عصر يبدو كقصر شامخ في منظر كئيب . سادته يعانون من الأرق والملل والقلق ، وخدامه يقاسون من المرض والجهل والجوع »[12] .

٢ ـ دورنا في الإسهام في بناء حضارة العصر :

قبل الحديث عن الإسهام في حضارة العصر، سنمهد بكلمة عن العصر وعلاقتنا به عند الدكتور زكي نجيب محمود . إذ يرى أن (العصر) ليس شيئاً محدداً، وإنما هو خضم من الأحداث والكائنات . وإذا ما تساءلنا : ما هي ثقافة العصر التي نواجهها أولا نواجهها ؟

بإجابته على السؤال يضرب مثالاً لحديث ضخم كإطلاق الصواريخ التي تغزو الفضاء، ولكن الضجة التي يُحدثها تكاد لا تكون جزءاً من ثقافة عصرنا نحن،ثم يستطرد قائلاً : « لكن قارن ذلك بحدث آخر ، هو إقحام إسرائيل على أرضنا ، وانظر بأي معنى وإلى أي مدى قد دخل هذا الجانب من الاستعمار الذي هو من علامات العصر في دنيانا الثقافية، بحيث لم يعد منا واحد يستطيع أن يغضّ عنه النظر »[١٣].

وبعد هذا التمهيد ، حدد نقطة البداية بين العالم العربي الحديث وحضارة العصر، « بمجيء هذه الحضارة غازية غالبة متسلّطة »[١٤] .

وتحت عنوان (موقف العرب من المذاهب الفلسفية المعاصرة) يطوف بنا فيلسوفنا الأديب باتجاهات الفلسفة ليسوقنا إلى نتيجتين هما « أن الفكر وعمليات التغيير وجهان لشيء واحد »[١٥] :

« وهو الدرس الذي نتعلمه من مذاهب الفلسفة المعاصرة جميعاً ، وذلك وحده جواز المرور الذي لا يمكنك الدخول في أجواء هذا العصر إلا به »[١٦] .

ويقرر في نهاية البحث أن هذا الذي يتطلبه منا العصر هو نفسه الذي ورثناه من مبادئ تراثنا الفكري « إن القرآن الكريم كلما وجه الخطاب إلى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ اضاف إلى ذلك قوله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ كان الإيمان لا يكون إيماناً كاملاً إلا إذا اقترن بالعمل الصالح »[١٧] .

لذلك يشترط لكي تجدي المبادئ، أن تربط القول بالعمل، وعندئذ « ننخرط في تيار عصرنا ، وفي الوقت نفسه نلتزم ميراثاً كريماً ورثناه »[١٨] .

أما عن سلبيات العصر ومساوئه، فإنه « بشهادة رجال الفكر أجمعين - إنه عصر أدى بشبابه إلى حالة من التمزق والتفسخ والضياع »[١٩] .

فما هو دورنا إزاء أزمة العصر ؟

يقرر الدكتور / زكي نجيب محمود أولاً أن أهم ما يميز عقيدة المسلم هي عقيدة التوحيد التي ينبني عليها ما يسميه (البناء المتسق) في القيم فيضمن للإنسان ألا

يتمزق سلوكه وان ننقذ انفسنا من نقائض عصرنا، ثم يمضي قائلاً « فلو استطعنا نحن ان نقدم للعالم مجموعة متسقة الاجزاء من القيم الهادية للإنسان على طريق الحياة، كان هذا دورنا في بناء الحضارة المعاصرة »[٢٠] .

وعندما استمع في اجتماع رسمي لقول مسئول كبير « علينا تحفيظ شبابنا القرآن الكريم ليقوّموا تلك الحضارة » عارضه مصححاً رأيه، فالأصوب « أن يقول إن علينا أن نزيد من تحفيظ شبابنا القرآن ليستطيعوا المشاركة في حضارة عصرهم »[٢١] .

ثالثاً : ضرورة ثبات المسلم المعاصر على عقائده ومبادئه :

إن المسلم المعاصر لا يختلف عن المسلم طوال العصور، أي منذ عصر النبي « ﷺ »، إذ إنه يتسلح بالعقيدة الإيمانية والقيم الخلقية ، ويظل مستمسكاً بالكتاب والسنة ويتزوّد بالمعرفة والعلوم النافعة لعمارة الأرض ، ويمضي في حياته الدنيوية قدماً بين أمر يأتمر به ونهى ينتهي عنه، وقَدَر يصبر عليه ملتزماً بشريعة ربه عز وجل ، آملاً في رضوانه وجنته في الآخرة .

وعندما نتكلم عن المسلم المعاصر، لا نغفل هذه الحقيقة، حتى لا يظن الظان ان هذا العصر يعطي صفة أخرى للمسلم لم تكن لغيره فيما سبق من عصور، أو تدفعه ليجعل الهيمنة لمذاهب العصر فيخضع لها على حساب دينه « كأن يحلل حراماً أو يحرم حلالاً تحت شعار العصرية » .

تقول الكاتبة الامريكية المسلمة (مريم جميلة) :

« إن البلاد المسلمة قد وقعت فريسة مصطلحات خاطئة ، ومنها مصطلح (العصرية) وقد جنى هذا المصطلح على الإسلام جناية كبرى »[٢٢] .

وقد لاحظنا من دراسة بعض آراء المهتدين للإسلام من الغربيين ـ أمثال محمد أسد ومريم جميلة ومراد هوفمان ـ تحذيرنا الشديد من اللهث وراء الأفكار الوافدة بحجة ملاحقة العصر بعد أن عرفوها قبلنا .

وها هو د. مراد هوفمان يضع النقاط على الحروف، ويفصل ما أجملته مريم جميلة، يقول د. مراد هوفمان :

« **ومن البديهي بعد ذلك أن يكون المخطط الإسلامي لفلسفة الحياة والذي يفرض نفسه بديلاً، قادماً من بيئة مخالفة، مواجهة حقيقة تصدم الفلسفة العصرية الغربية، وجهلها بالقيم، وإباحيتها المطلقة لكل شيء حسب التعبير الامريكي «لا شيء ممنوع» هذه المدنية العصرية الغربية تصطدم بالمخطط الإسلامي المضاد الجاد، الذي يراه البعض عتيقاً بالياً، لا لشيء سوى قيام صرحه واستثماره، غير مرتبط بعنصر الزمان، بمعنى صلاحيته لكل العصور** »[٢٣] .

وكان الدكتور زكي نجيب محمود حريصاً أيضاً على الاستمساك بالثوابت، كالعقيدة واللغة والقيم الأخلاقية، فإنه في تحليله لمواقف الأمة من الأفكار الأساسية التي صنعت مناخ الحياة في أوروبا وأمريكا، لاحظ أن هناك فئة رافضة لتلك الأفكار. وأخرى تتلقى تلك الأفكار وكأنها وحي من السماء، ثم يصوب موقف الفئة الثالثة وهي التي تهتدي بفطرتها إلى جادة الطريق، فتتلقى أفكار العصر لتعجنها عجناً مع أصولنا التي أسميناها فيما أسلفنا بالثوابت، كالعقيدة، واللغة، والقيم الأخلاقية التي تفرض على حاملها ألا يضحي بإنسانية الإنسان لأي سبب من الأسباب »[٢٤] .

كذلك على المسلم المعاصر ألا يهتز أمام حملات التشكيك في أنظمة الإسلام وتشريعاته بالموازنة بنظم أوروبا .

ولا تأتي هذه التوصية على لسان أحد مسلمي الشرق، بل على لسان مسلم غربي تشبع بثقافة أوروبا وعاش في ظل أنظمتها (ولا يُنبئك مثل خبير) .

يقول د. هوفمان : « يجب ألا يتلجلج المسلمون أمام مسائل مثل الديموقراطية، الجمهورية، فصل السلطات، فعليهم أن يؤكدوا لمن يتحداهم عدم وجود ما يخالف الإسلام أو يعاديه في ذلك »[٢٥] .

نستخلص إذن من الآراء السابقة أنه بوسع المسلم المعاصر الحياة في ظل حضارة مغايرة لحضارته ، دون التضحية بهويته وثقافته الإسلامية .

وقد تحققت أفضل الأمثلة في العصر الحديث بواسطة المسلمين الذين ابتلوا بحكم الاتحاد السوفيتي ، وخضعوا لأشد أنواع (غسيل المخ)، إذ تتضاءل بجوارها آثار التعليم العلماني الذي طبقته دول الاستعمار الغربي أمثال انجلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وغيرها من مستعمراتها وفرضته على المسلمين فرضاً .

ويتطلب شرح هذه التجربة للإفادة منها وضمان استمراريتها ، أن نعرض بإيجاز لموضوع (الثقافة والحضارة) ومدى التمايز بينهما :

الثقافة والحضارة :

ولكي نتجنب الاستغراق في التعريفات النظرية بين الثقافة والحضارة، والتمييز بينهما، نفضل اختيار دراسة الرئيس علي عزت بيجوفيتش لأنه لم يكتف بالتعريفات، بل تتبع الجذور التاريخية وشرح المفردات اللغوية، فدلّنا على السلوك العلمي الذي اجتاز طريقه هو نفسه، لأنه عاني واقعياً بشدة بسبب استمساكه بثقافته الإسلامية أمام جيوش الإلحاد، فكيف استطاع الحياة في ظل حضارة مضادة لثقافته ؟

وقد قدم بحثه المبتكر - دون أن يدري - لمسلمي العصر لحثهم على الصبر والمثابرة مهما اشتدت المحن ، فمهما كانت المحن ، فإن الإسلام « أخذ اسمه من قوانينه ونظامه ومحرماته ومجاهدة النفس والبدن التي يطالب الإنسان بها، وأيضاً من قوة النفس في مواجهة محن الزمان »[٢٦] .

فمن رأيه أن الثقافة وثيقة الصلة بالدين ، وتبدأ بالتمهيد السماوي ، ولابد في الدين من عبادة ، وهي لصيقة بالروح - أي الإنسان من الداخل .

أما الحضارة فتتصل بالأدوات وتطورها، وهو تطور خارجي كمي .

وبتحليله اللغوي للفظين يذكر أن كلمة ثقافة (Culture) تتصل من ناحية الأصل اللغوي بكلمة (cult) أي: عبادة ، وهي باللاتينية (Cultus) ، وهما ذو

أصل مشترك من الكلمة الهند أوروبية (Kwel) .

اما كلمة حضارة (Civilization) فمتصلة بكلمة وطن (Civis) أو موطن.

وبعد هذه التعريفات يشرح الرئيس علي عزت بيجوفيتش آثارها على حياة الإنسان بنوعيها - حسب تعبيره - البرانية والجوانية ، ليصل إلى بيان الاختلاف البيّن بين حضارة العصر وحكمة الإسلام، لأن الحضارة بشعار « انتج لتربح، واربح لتبدد » تغري بالحياة البرّانية على حساب الحياة الجوانية . أما الثقافة (وفقاً لطبيعتها الدينية) فتميل إلى التقليل من احتياجات الإنسان ، أو الحد من درجة إشباعها .

ثم يميز بين الحضارة المعاصرة التي ترفع شعار « اطلق رغبات جديدة دائماً وأبداً »، وحكمة الإسلام في « كبح الرغبات »[٢٧] .

لذلك استطاع الرئيس علي عزت بيجوفيتش ممارسة حياته في ظل مناخ إلحادي ولم يهتز ، بل ظل مستمسكاً بثقافته الإسلامية ، فكانت كسفينة النجاة في بحر الإلحاد المتلاطم ، وكان كالرُّبان الماهر الماسك بشراعه بقوة ،مكافحاً تلاطم الأمواج ومقاوماً شدة الرياح .

وبالرغم من آرائه النقدية العنيفة لهذه الحضارة فلسفياً وعلمياً ودينياً بكتابه الجامع (الإسلام بين الشرق والغرب) فإنه لم يرفضها ، وطالب فقط بتحطيم الأسطورة التي تحيط بها .

« هذا النقد للحضارة ليس دعوة لرفضها ، فالحضارة لا يمكن رفضها حتى لو رغبنا نحن في ذلك ، إنما الشيء الوحيد الضروري والممكن هو أن نحطم الأسطورة التي تحيط بها، فإن تحطيم هذه الأسطورة سيؤدي إلى مزيد من أنسنة هذا العالم ، وهي مهمة تنتمي بطبيعتها إلى الثقافة »[٢٨] .

رابعاً: التثقيف الذاتي للمسلم المعاصر:

إن أول سؤال يطرأ على الذهن حول الحديث عن واجب المسلم المعاصر في التثقيف الذاتي هو :

هل يصح له الاطلاع المباشر على أصول الإسلام ـ الكتاب والسنة ـ ثم كتب الفقه والحديث ليتزود بالعلوم الشرعية ويستنتج الأحكام الفقهية ، أم أن الأمر قاصر على العلماء المتخصصين ؟

كانت المسألة محل نقاش بين العلماء، فرأى البعض أنه من (اختصاص الجماعة التشريعية في الأمة المكونة من العدول ذوي البصيرة النافذة بأحكام الشريعة ومصالح الدنيا) لذلك فلا يصح لغيرهم استنباط الأحكام من مصادر الإسلام .

ولكن الدكتور / محمد عبدالله دراز يوسع دائرة الإباحة باعتبار أن هناك فائدة في دراسة موضوعات الأصول لغير المجتهد: « فإنا وإن لم نصل إلى مرتبة الاجتهاد والقدرة على الاستنباط فإنا نصل إلى معرفة مقاصد الشرع وسر أحكام الشريعة ، وإنه لهدى تسكن إليه النفس ، وإنه لنور يشرق في نواحي القلب المؤمن ويدفع عنه الحيرة ويطرد ما يلم به من خواطر »[٢٩] .

ونحن نرجح الرأي الثاني:

ففي زمن انتشر فيه العلم وكثر العلماء، وفاضت المكتبة الإسلامية بذخائر التراث، وتنافس العلماء في التأليف في شتى الموضوعات التي تفي باحتياجات المسلم في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق(٣٠) ، فقد ثم أصبحت الأحوال مهيأة لكي يكتسب المسلم المعاصر ثقافته الإسلامية من مصادرها ، ورائده في ذلك كله التقوى والإخلاص في تحرى الحق لاسيما أن الإسلام يحض على العلم والتعلم .

إن تقدير الإسلام للعلم والعلماء أمر لا ينازع فيه أحد، فإذا (كان التعلم حقاً لكل إنسان كما يقول الميثاق العالمي وهو هدف مثالي عال فإن التعلم في الإسلام ليس مجرد حق، بل هو فريضة (طلب العلم فريضة على كل مسلم) ـ البيهقي ـ أي ومسلمة .

وفي ذلك أيضاً يقول رسول الله « ﷺ » (ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة) رواه مسلم . فالتعلم في الإسلام مرتبط بالدين بينما هو منفصل عنه في المناهج الغربية، وفيما رواه البخاري قال النبي « ﷺ » (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما العلم بالتعلم) .

والفقه هو العلم بدقائق الأمور والتعلم هو أثر العلم في الإنسان وتكوينه لا مجرد حفظ المعارف [٣١] .

كذلك نستند في ترجيح إباحة التثقيف الذاتي للمسلم المعاصر إلى الضرورة : « فنحن الآن في ظروف طارئة لم تمر بها الأمة الإسلامية من قبل ، فلا يكاد التاريخ يذكر أن المسلمين ظلُّوا بلا خلافة ولا رمز يرفع راية الإسلام ويدافع عنه وعن أبنائه إلا في هذا العصر الذي نعيش فيه ، هذه الظروف الطارئة تستوجب من كل منا أن يتزود - بعد تقوى الله - بالعلم الشرعي الذي يوسع آفاقه ومداركه ، ويعينه على استيعاب الظروف المحيطة به في ظل ضوابط الشرع »[٣٢] .

المسلم في ظل ذلك كله مخيَّر بين الاكتفاء بالفروض أو تنمية الإيمان بالطاعات وفعل الخيرات :

فعن طلحة بن عبيدالله - رضي الله - عنه قال :

جاء رجل من أهل نجد إلى رسول الله « ﷺ » ثائر الرأس ، نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله « ﷺ » خمس صلوات في اليوم والليلة »

فقال : هل عليَّ غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » .

قال رسول الله - ﷺ - : « وصيام رمضان » .

قال هل عليَّ غيره ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » .

قال : وذكر له رسول الله « ﷺ » سيم الزكاة ،

قال : هل عليَّ غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » .

قال : فادبر الرجل وهو يقول : « والله لا أزيد على هذا ولا أنقص ، قال رسول الله « ﷺ » أفلح إن صدق » .

رواه البخاري ومسلم

ومع النظر إلى تفاضل الأعمال وتعدد شُعَب الإيمان: يقول الدكتور / عبدالكريم زيدان : تحت عنوان (أي الأعمال أفضل) ؟

« لا شك في تفاضل الأعمال الصالحة من حيث الأجر والثواب ومن حيث درجة طلب الشرع لها، فالفرض أفضل من المندوب، وما عظم نفعه للجماعة أفضل مما اقتصر نفعه على فاعله، والقاعدة في أفضل الأعمال الصالحة بالنسبة لشخص ما هو العمل المطلوب منه شرعاً في وقت معين وظرف معين، فالصلاة حين حلول وقتها أفضل من غيرها وأوجب على المسلم أن ينشغل بها، والجهاد في وقته أفضل بالنسبة لمن وجب عليه من القيام بنوافل العبادات وطلب العلم ، والصيام في وقته أفضل بالنسبة لمن وجب عليه من الانشغال بغيره من العبادات وهكذا »[٣٣] .

كذلك تتفاوت المحرمات، فعلى رأسها السبع الموبقات، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي « ﷺ » قال :

« اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟

قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي

والمسلم قبل ذلك وبعده مسئول أمام الله عز وجل :

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسوا الله « ﷺ » قال : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع :

عن عمره فيما أفناه ؟ ، وعن علمه ماذا عمِلَ به ؟ ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟ ، وعن جسمه فيما أبلاه ؟ » .

رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

خامساً: ثقافة المرأة المسلمة المعاصرة:

إننا لم نضع هذا البحث في النهاية تهويناً لشأن المرأة المسلمة ولا تقليلاً من مكانتها، فإنها - كما هو معلوم طبقاً لشريعة الإسلام - على قدم المساواة فيما أوردناه في تحمل المسئوليات والتكاليف الشرعية.

وقد وجّه القرآن الكريم الخطاب للرجل والمرأة معاً، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات الآية : ١٣].

وقد توخينا ذلك فقط للاختصار وتفادينا التكرار فإن كل ما عرضناه في هذه الدراسة ينسحب على المرأة المسلمة أيضاً. مع تنوُّع مسئوليات كل منهما. ولا ننسى أن (النساء شقائق الرجال).

وكيف نغفل عن مكانتهن وهن الأمهات والزوجات والأخوات والبنات والعمّات والخالات والجدات ؟.

لقد قمن بأدوارهن خير قيام طوال تاريخ حضارتنا منذ الصحابيات الجليلات ومن أتى بعدهن، حيث ربَّيْنَ القادة وأبطال الجهاد والعلماء والأمراء والفقهاء، ومنهن من أسهمن في الحياة الثقافية الإسلامية، في الفقه والأدب واللغة والتصوُّف والشِّعر، وربما لم تسجل صفحات التاريخ أسماءهن كلّهن، ولكنهن وقفن جميعاً وراء الستار بعيداً عن الأضواء وحب الشهرة والمجد واكتفين بالجزاء الأوفى من الله عز وجل.

وقد وردت آية جامعة في سورة الأحزاب، اقترن فيها المسلمون والمسلمات في جميع أحوالهم وأعمالهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب الآية : ٣٥].

وقد أورد النيسابوري في تفسيره لهذه الآية، أنه « يروى أن أم سلمة أو كل

أزواج النبي « ﷺ » قلن يا رسول الله : ذكر الله الرجال في القرآن ولم يذكر النساء فنحن نخاف أن لا يقبل منا طاعة فنزلت ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ وذكر لهن عشر مراتب :

الأولى : التسليم والانقياد لأمر الله . والثانية : الإيمان بكل ما يحب أن يصدق به ، فإن المكلف يقول أولاً كل ما يقول الشارع فأنا أقبله فهذا الإسلام ، فإذا قال له شيئاً وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده، ثم إن اعتقاده يدعوه إلى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد هو المرتبة الثالثة ، ثم إذا آمن وعمل صالحاً كعمل غيره يأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق في كلامه عند النصيحة ، وهو المراد بقول ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ .

ثم إن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال في قصة لقمان ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ أي بسببه ، ثم إنه إذا كمل في نفسه وكمل غيره قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله ﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾ وفيه إشارة إلى الصلاة ، لأن الخشوع من لوازمها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ فلذلك أردفها بالصدقة ، ثم الصيام المانع من شهوة البطن . . . ثم ختم الأوصاف بقوله : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ يعني أنهم في جميع الأحوال يذكرون الله . . . »[٣٤] .

أما عن اللغط الدائر حول مكانة المرأة في الإسلام فإننا نأتي بخلاصة دراسة المستشرقة الألمانية زيجفرد هونكة، وقد عاشت في أوروبا وقرأت العهدين القديم والجديد ، واستطاعت عن علم أن تعرف مكانة المرأة في الإسلام المعرفة الصحيحة، بعيداً عن مؤثرات الآراء الخاطئة التي تحملها أوروبا نحو الإسلام بعامة والمرأة المسلمة بخاصة .

وبقراءتها لترجمة معاني القرآن الكريم وفهمها أحكامه ، أخذت تصحح مفاهيم مواطنيها فإن « القرآن الكريم بصفته الدستور الإلهي الذي ينص على التشريعات والحدود المنظمة لكافة المجالات الدينية والدنيوية، الشخصية والعامة، إنما يؤكد أنه لا

فرق بين الذكر والأنثى لا في الجوهر ولا في التكريم، ويساوي بينهما مساواة تامة في كافة العبادات وأمور العقيدة، وفي الناحية الخلقية البحتة، كما في الأمور المالية المادية والاجتماعية »[٣٥] .

وبعد عرضها لبعض نصوص العهد القديم التي تصور آدم وحواء في صراع أزلي، وتتحول الصورة في أسفار العهد الجديد إلى كراهية، تجد الإسلام لا يصف المرأة بأنها أصل الخطيئة ولا يعرف الصراع بين الجنسين لا في الحياة الزوجية ولا في الحياة العامة، بل يذكر القرآن ما جعله الله عز وجل من مودّة ورحمة بين الأزواج : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم الآية : ٢١] .

كذلك فإن الرسول « ﷺ » أوصى بالنساء خيراً كما أنه أوصى بالأمهات أكثر من وصيته بالآباء ، وحرم القرآن وأد البنات وساوى بينهن وبين الذكور في التربية .

ضرورة الجهاد العلمي المتواصل :

لم تعرف أمة الإسلام طبقة المثقفين النخبة أو الصفوة بالمفهوم الغربي المعاصر - أي التي تكتفي بالتزوُّد بالمعارف وتمضي في تثقيف ذاتها إلى الدرجات العليا التي تؤهلها إلى قيادة مجتمعاتها بقدر نبوغها في مجالات الفكر المحض والنظريات، أي محصورة في دائرة الفلك النظري فحسب ، وربّما كانت سلوكيات أغلبها مخالفة تماماً لما تدعو إليه من فضائل وآداب ومثل عليا !

لم تعرف أمة الإسلام هذا الصنف من الناس ، ولكن عرفت الطبقات العليا من العلماء المجتهدين من أهل العقد والحل ، المتخصصين في التفسير والحديث والفقه ، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فضلاً عن قيامهم بالتعليم والوعظ والتربية، وكافتهم يحرصون في المقام الأول على الاستناد إلى كتاب الله وسنة رسوله « ﷺ »، مع الحرص على العبادات والالتزام بالسلوك الإسلامي القويم [١] .

فإن على المسلم المعاصر واجب الجهاد العلمي المتواصل ، لتسلم له ثقافته ويحتفظ

---

(١) - يُنظر كتابنا « مع المسلمين الأوائل في نظرتهم للحياة والقيم » ط . دار الدعوة بالإسكندرية .

بأصالة شخصيته لكي لا تذوب بفعل أجهزة الإعلام الجبّارة المسلحة على فكرة (العولمة) هادفة إلى صهر ثقافات الغير الغربية في أتونها .

وتتميز الثقافة الإسلامية ، فضلاً عن العقائد الإيمانية وفي أعلاها عقيدة التوحيد الخالصة من أية شائبة من الشرك ، **تتميز بالجانب التعبُّدي ، والعنصر السلوكي المتمثل في العبادات** ، ولها دورها في تنبيه الإنسان المسلم إلى حقيقة وجوده، وتعريفه بمغزى حياته ، وحثّه على تحسين سلوكه دائماً إلى الأفضل ، فيظل طوال حياته حريصاً على صلته بالله عز وجل :

قال تعالى ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان الآية :٢٢]، أي متذللاً بالعبودية، مقراً بالالوهية ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ مطيع لله في أمره ونهيه، ﴿ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ بالطرف الاوثق، الذي لا يخاف انقطاعه من يمسك به، ﴿ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ مرجع كل أمر، خير وشر،وهو المجازي عنه[1] .

وقد اجتهد العلماء والباحثون في محاولة معرفة مغزى الأمور التعبّدية ، ومن أقربها توفيقاً ماذهب إليه الأستاذ/ رءوف أبو سعده، فكتب « **الصلاة** تُريك نفسك في صورة العبد خمس مرات في اليوم والليلة، فتُذكِّرك بمن انت، **والزكاة** تدلُّك على من انك عامل في أرض الله بأمر الله، تؤدي خراجها في سبيله عز وجل وفق ما أمرك، **والصوم** يذكرك بأنك طاعم من رزق الله، إن شاء أطعمك وإن شاء حرمك، **والحج** لمن استطاع إله سبيلا يُذكِّرك بالمنتهى، في يوم مجموع له الناس، وقد تقطع بهم الأسباب -إلا من وجهته عز وجل- كلّهم ضارع إليه، يستغفره ويسأله ويستعينه »[2] .

وفي هذا الغرض اخترنا رسالة الإمام ابن حزم ، لانها تحتوي على مجمل ما يجب على كل مسلم ومسلمة معرفته وأدائه .

وسنلخّص هذه الرسالة التي وجهها الإمام ابن حزم لبعض إخوانه وأصدقائه الذين

---

(١) - مختصر تفسير الإمام الطبري - دار الشروق .

(٢) - ص١٦٩جـ١ من كتاب (من إعجاز القرآن - رءوف ابو سعده / دار الهلال سنة١٩٩٣م .

كتبوا إليه مسترشدين فكتب إليهم محدداً المسائل التي لا يستغني عنها من له أقل اهتمام بدينه فكتب :« سألتم - وفّقنا الله وإياكم - عن أقرب ما يعتب به العبد المجرم ربه يوم القيامة ، وعن افضل ما يُستنزل به عفوه وفضله عز وجل، ويستدفع به سخطه وغضبه ، وعن أنفع ما يشتغل به عن كثرة ذنوبه، وعن خير ما يسعى به المرء في تكثير صغائره وكبائره » ، ثم أجاب ذاكراً قول الله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾[هود الآية : ١١٤] وحديث الرسول « ﷺ » : [**الصلوات الخمس، والجمعة للجمعة، كفارة لما بينهن ما لم تغشن بالكبائر**] ، فكان هذا الحديث موافقاً لقول الله تعالى ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ [النساء الآية : ٣١] .

وقال ابن حزم « فصح أن بأداء الفرائض واجتناب الكبائر - أعاذنا الله وإياكم منها - تحط السيئات التي هي دون الكبائر . فبقي أمر الكبائر، فوجب النظر فيها، فوجدنا الناس قد اختلفوا فيها، فقالت طائفة : هي سبع ، واحتجوا بحديث النبي « ﷺ » : [اجتنبوا السبع الموبقات، فذكر عليه السلام الشرك، والسحر، وقتل النفس ، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

وروى عن ابن عباس أنه قال :(هي السبعين أقرب منها إلي السبع) ، ثم ذكر الإمام ابن حزم بعد ذلك فمنها : قول الزور ، وشهادة الزور ، وعقوق الوالدين، والكذب عليه - ﷺ - وتعريض المرء أبويه للسب بأن يسب آباء الناس ، وذكر « ﷺ » الوعيد الشديد بالنار على الكفر، وعلى كفر نعمة المحسن بالحق، وعلى النياحة في المآتم، وحلق الشعر فيها، وخرق الجيوب، والنميمة، وترك التحفظ من البول، وقطيعة الرحم ، وعلى الخمر، وعلى تعذيب الحيوان بغير الذكاة لأكل ما يحل أكله، وما أبيح أكله منها، وعلى إسبال الإزار، وعلى مانع فضل مائه من الشراب، وعلى الغلول، وعلى مبايعة الأئمة للدنيا ... وعلى المقتطع بيمينه حق امرئ مسلم ، وعلى الإمام الغاش لرعيته، وعلى من ادعى إلى غير أبيه ... وعلى من غلّ، وعلى من ادعى ما

ليس له ، وعلى لاعن ما لا يستحق اللعن ، وعلى بغض الأنصار، وعلى تارك الصلاة، وعلى تارك الزكاة وعلى بغض عَليّ» .

ويقول ابن حزم «وقد أطلت التفتيش على هذا منذ سنين، فصح لي أن كل ما يوعد الله به في النار - أي في القرآن - فهو من الكبائر » . ثم يقدم أحاديث الرسول « ﷺ » كهدايا إلى أصحابه ، وهي الدالة على الأذكار الشرعية وقراءة القرآن والاستغفار « فيستحب للمسلم الذي يطلب النجاة أن يأتي بما لعله أن يواري ذنوبه ويوازن، وأن يواظب على قراءة القرآن فيختمه في كل شهر مرة، فإن ختمه في أقل فحسن ، ما بين ما ذكرناه إلى أن يختمه في ثلاث لا أقل ، ولا يسع أحداً أن يختمه في أقل من ذلك ، ويواظب مع ذلك على قراءة قل هو الله أحد ولو في كل ركعة من صلاته مع أم القرآن وسورة أخرى » .

ويمضي ابن حزم في تقديم هداياه « وليواظب على صلاة الفرض في الجماعة » ، وبخاصة صلاة الفجر والعشاء .

ثم أخذ يرتب الناس « على مراتب الحقائق في دار القرار في الآخرة - وأما الدنيا فمحل مبيت بؤسها منقضٍ ، وسرورها منسيٌ كأن ذلك لم يكن - فوجدتها عشر مراتب :

فأولها: مرتبه عالم يُعَلِّم دينهم، فإن كل من عمل بتعليمه أو علم شيئاً مما كان هو السبب في علمه، فذلك العالم والمتعلم شريك في الأجر إلى يوم القيامة على آباد الدهور .

والثانية : حكم عدل فإنه شريك لرعيته في كل عمل خير عملوه في ظل عدله وأمن سلطانه بالحق لا بالعدوان . . .

وأما الثالثة : مجاهد في سبيل الله عز وجل ، فإنه شريك لكل من يحميه في كل عمل خير يعمله . . .

وبعد هذه مرتبة رابعة : هي مرتبة الحظوة والقربة، وهي حالة إنسان مسلم فتح الله له باباً من أبواب البر مضافاً إلى أداء فرائضه، إما في كثرة صيام، أو كثرة صدقة، أو كثرة صلاة ، أو كثرة حج وعمرة ، وما أشبه ذلك . .

ثم مرتبة خامسة : وهي مرتبة الفوز والنجاة ، وهي حالة إنسان مسلم يؤدي الفرائض ويجتنب الكبائر ويقتصر على ذلك . . .

ثم بعدها مرتبتان : وهما مرتبتا السلامة مع الغَرَر، وعاقبتهما محمودة، إلا أن ابتداءها مذموم مخوف هائل ، وهما حال إنسان مسلم عمل خيراً كثيراً وشراً كثيرا، وأدى الفرائض وارتكب الكبائر، ثم رزقه الله التوبة قبل موته .

والثانية حال امرئ مسلم عمل حسنات وكبائر ومات مصراً ، إلا أن حسناته أكثر من سيئاته، وهذان غرّرا ولكنهما فائزان ناجيان بضمان الله عز وجل لهما إذ يقول ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾[طه الآية :٨٢] ولقوله ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [القارعة الآية:٦-٧] وقوله ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود الآية:١١٤] ولا خلاف بين أحد من أهل السُّنة فيما مكنا من هذا»ص١٥٤ .

ثم مرتبة ثامنة : وهي مرتبة أهل الأعراف، وهي مرتبة خوف شديد وهول عظيم، إلا أن العاقبة إلى سلامة، وهي حال امرئ مسلم تساوت حسناته وكبائره . . .

ثم مرتبة تاسعة : وهي مرتبة نَشبةٍ ومحنة وبلية وورطه ومصيبة وداهية ، نعوذ بالله منها، وإن كانت العاقبة إلى عفو وإقالة وخير، وهي حال امرئ مسلم خفت موازينه ورجحت كبائره على حسناته . . . وبعد وصف ابن حزم لمن على شاكلته في الأحاديث الصحاح، يستطرد فيقول « فيبقى هؤلاء في النار على قدر ما أسلفوا، حتى إذا بقوا كما جاء في الحديث الصحيح « جاءت الشفاعة التي ادخرها الله لنبيّه « ﷺ » وجاءت الرحمة التي ادخرها لذلك اليوم الفظيع والموقف الشنيع وأخرجوا كلهم من النار فوجاً بعد فوج بعدما امتحشوا أو صاروا حمما .. أي أنهم لا يُخلّدون في النار . . .

وأما المرتبة العاشرة فهي مرتبة السُّحق، والبعد، والهلكة الأبدية، وهي مرتبة من مات كافراً، فهو مخلد في نار جهنم لا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يقضى عليهم فيموتوا . . .

وبعد أن ينصح الإمام ابن حزم بالإكثار من النوافل ، يرى أنه ما يلزم كل إنسان من حفظ القرآن فهو أم القرآن وشيء من القرآن معها ، مذكراً بفضل تعلم القرآن كما جاء في حديث الرسول « ﷺ » : [خيركم مَن تَعلّم القرآن وعلّمه].

ويحض إخوانه على طلب العلوم بأنواعها مع إخلاص النية فقد صح عن النبي « ﷺ » أنه قال [من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً لم يجد عرف الجنة يوم القيامة] .. فالله الله عباد الله، تداركوا أنفسكم بتصفية نياتكم في هذا الباب وفي العمل المرغوب في الصلاة والصيام والصدقة، مع تحذيره الشديد من النفاق « **واعلموا رحمكم الله أن من تعمّد االهو واللعب حتى مضى وقت صلاة مفروضة ولم يصلّها ، أخف ذنباً عند الله ممن صلاها لأجل الناس ولولاهم ما صلاها....** » .

وفي إجابته عن سؤال أي الأمور أفضل في النوافل: الصلاة أم الصيام أم الصدقة ؟

يجيب الإمام ابن حزم « جاءت الرغائب في كل ذلك ، وكلها فعل حسن ، وما أحب للمؤمن أن يخلو من أن يضرب في هذه الثلاث بنصيب ولو بما قلّ » .

ويستطرد في موضوع آخر « وأما ما سألتم عنه مما روي في حديث التنزُّل ، وهل الإجابة مضمونة في تلك الساعة (يقصد صلاة الليل) ، فحديث التنزل صحيح ، وقد قال الله تعالى في محكم كتابه ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافرالآية: ٦٠] وقال تعالى ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطرالآية: ١٠] ، فإنما شرط الإجابة العمل الصالح ، أو أن يكون الداعي مظلوماً، على ما جاء في الأثر عن النبي « ﷺ » :

أن دعاء المؤمن لا يخلو من إحدى ثلاث : إما تعجيل إجابة، وإما كفاية بلاء، وإما تعويض أجر ، أو كلاماً هذا معناه . فاعلموا وفقنا الله وإياكم أن من دفع الله تعالى عنه بلاء، أو عوّضه أجراً فقد أجاب دعاءه ولم يُخيّبه، وللإجابة في اللغة معنى غير الإسعاف ...

وأما عن تفاضل الكبائر، فإن الحسنات تتفاضل والكبائر تتفاضل ، سُئل ﷺ عن أكبر الكبائر ، فذكر عليه الصلاة والسلام أشياء منها : زنا الزاني بامرأة جاره، ومنها زنا الشيخ ومنها زنا الزاني بامرأة المجاهد .

ثم ختم الرسالة ببيان التوبة وأنواعها ، وفي النهاية فإن التوبة إنما هي التبرؤ من الذنب والخروج عنه بما أمكن ...[1] .

* * *

---

(١) -باختصار من (رسالة التلخيص لوجود التخليص) للإمام ابن حزم من الصفحات ١٤١-١٤٣-١٤٥-١٤٦-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٤-١٥٥-١٥٧-١٦٠-١٦٨-١٧٠-١٧٣-١٨٥

وهي منشورة ضمن رسائل أخرى بعنوان (الرد على ابن النغريلة اليهودي) تحقيق د.إحسان عباس

ط دار العروبة بالقاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م

المراجع

١ . مقال (التكنولوجيا والتنمية من منظور حضاري بقلم د . حامد إبراهيم الموصلي ص١٥١ بمجلة ـ منبر الشرق ـ الصادرة عن المركز العربي الإسلامي للدراسات بالقاهرة ربيع أول ١٤١٤هـ / سبتمبر ١٩٩٣م .

٢ ـ أشبنجلر ، د. عبدالرحمن بدوي ص١١٩ مكتبة النهضة بالقاهرة ١٩٤٥م.

٣ ـ إصهار الإسلام، روجيه دوباسكويه ص١٥٢ /١٥٣ دار الشروق بالقاهرة١٩٩٤م

٤ ـ نفسه ص١٣٤ .

٥ ـ (عن الحرية أتحدث) د/ زكي نجيب محمود ـ دار لشروق ١٩٨٦م . .

٦ ـ من مقدمة كتاب (فكر المسلم المعاصر ، ما الذي يشغله؟) ح١ـ مطابع الأهرام بالقاهرة١٩٩٢م .

٧ ـ تغريب العالم سيرج لاتوش، ترجمة خليل طلعت دار العالم الثالث بالتعاون مع البعثه الفرنسية للأبحاث قسم الترجمة بالقاهرة ١٩٨٣م .

٨ ـ الإسلام عام ٢٠٠٠ .

٩ ـ الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإدارة التكامل القومي، د/ حامد ربيع ص٣٢ دار الموقف العربي القاهرة ١٩٨٣م .

١٠ ـ نقلاً عن الاعتصام للإمام الشاطبي ح١ ص٦٨ تحقيق الشيخ رشيد رضا ـ دار المعرفة ببيروت ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

١١ ـ (آراء فلسفية في أزمة العصر) أدريين كوخ ص١٥ ترجمة محمود محمود مكتبة الأنجلو المصرية سبتمبر ١٩٦٣م .

١٢ ـ ص ٥٥ بكتاب (د. رشدي فكار في حوار متواصل حول : مشاكل العصر إعداد خميس البكري مكتبة وهبة ١٤٠٧هـ ١٩٨٦/م .

(١٣ ـإلى ٢٠) ثقافتنا في مواجهة العصر د/ ذكريا نجيب محمود .

٢١ - عن الحرية أتحدث أيضاً ص٨٧ دار الشروق ١٩٨٦م .

٢٢ - نقلاً عن كتاب (مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام) أنور الجندي ص١١٣ مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

٢٣ - الإسلام كبديل ص٢٠٦ ترجمة د. غريب محمد غريب، مجلة النور الكويتية ومؤسسة باڤاريا شوال ١٤١٣هـ / إبريل ١٩٩٣ .

٢٤ - (عن الحرية أتحدث) د. زكي نجيب محمود ص٣٢١ دار الشروق ١٩٨٦م.

٢٥ - ص٦٠ من كتاب (الإسلام عام ٢٠٠٠) د. مراد هوفمان ترجمة عادل المعلم مكتبة الشروق نوفمبر ١٩٩٥م .

٢٦ - الإسلام بين الشرق والغرب ص٢٩٦ (الرئيس على عزت بيجوڤيتش . ترجمة محمد يوسف عدس، مؤسسة باڤاريا ومجلة النور الكويتية رجب ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٢٧ - الإسلام بين الشرق والغرب ص ٥٦-٩٤ .

٢٨ - الإسلام بين الشرق والغرب ص١٣٣ .

٢٩ - من كتاب (فقه الأولويات في الإسلام) د. مجدي الهلال ص١٠ / ١١ والرأي الأول للأستاذ عبدالوهاب خلاف والرأي الثاني للدكتور عبدالله دراز دار التوزيع والنشر الإسلامي بالقاهرة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

٣٠ - على سبيل المثال ينظر كتاب (علّم نفسك الإسلام) للدكتور نبيل عبدالسلام هارون ط١ دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .

٣١ - ص٨٥ من كتاب (الإعلان الإسلامي العالمي لحقوق الإنسان ومقارنته بالإعلان العالمي لهيئة الأمم المتحدة) للأستاذ عبدالحفيظ نصار . دار الهدى للمطبوعات - ميامي - الإسكندرية سنة١٩٩٧م .

٣٢ - ص٧ من كتاب (فقه الأولويات في الإسلام) د. مجدي الهلالي دار التوزيع والنشر الإسلامي بالقاهرة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

٣٣ ـ ص٤١-٤٢ من كتاب (أصول الدعوة) د. عبدالكريم زيدان مكتبة المنار الإسلامية ـ بغداد ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

٣٤ ـ (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) للنيسابوري تحقيق وتعليق د. حمزة النشرتي والشيخ عبدالحفيظ فرغلي ود. عبدالحميد مصطفى توزيع (الأهرام) بالقاهرة ١٩٩٣م .

٣٥ ـ كتاب (الله ليس كذلك) زيجفرد هونكة ص٦١ ترجمة د. غريب محمد غريب دار الشروق مؤسسة باڤاريا ومجلة النور الكويتية .

* * *

(٣) التوافق بين الأدلة السمعية والعقلية
عند
ابن تيمية مع نقده للفلسفة اليونانية

نقد ابن تيمية للفلسفة اليونانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد :

فإننا سنعرض في هذا البحث لنقد ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) للفلاسفة، وسننتقي بعض المسائل التي اعترض عليها أثناء مناقشتهم ، فمنها ما يطرق الأسماع لأول مرة بسبب هيمنة الثقافة الفلسفية - كصلة الشرع بالعقل - ومنها ما أثار الجدل والنقاش كالمنطق الأرسطي[1] ، مع الإحالة إلى المصادر للطالب الراغب في الاستزادة والتوسع .

وغرضنا من بحثنا تحقيق ثلاثة أهداف هي :

الأول: إزاحة شبهة أن نقده للفلاسفة يعني إنكاره النظر والاستدلال العقلي، كيف وقد أمر الله تعالى بالنظر والاعتبار والتفكر والتدبُّر في غير آية ؟!

أضف إلى ذلك أن الرسول « ﷺ » كان يتمتع بأكثر العقول وأعلاهم ذكاء وفطنة، وهو - كغيره من الأنبياء الذين خاطبوا عقول البشر، وتسلحوا بأدلتها المتوافقة مع الفطرة، فأخبروا الأمم التي أرسلوا إليها بمجيزات العقول، لا بمجالات العقول .

الثاني : التعرف على التوافق بين الأدلة الشرعية والعقلية فيما أظهره الشيخ من طرق البراهين القرآنية في العقائد الإسلامية .

الثالث : إثبات سَبق ابن تيمية في نقده للمنطق الأرسطي للمناطقة المحدثين أمثال رسل وبيكون بسبب صوريّته وعقمه، كما سيأتي :

---

(١) كانت الفكرة الشائعة أن المسلمين اتخذوا المنطق الارسطي منهجاً لابحاثهم، إلى أن قام استاذنا الدكتور علي سامي النشار بإصدار كتابه (مناهج البحث عند مفكري الإسلام ونقد المسلمين للمنطق الأرسطاليسي) فاثبت فيه إثباتاً قاطعاً، في ضوء وثائق هامة عدم قبول مفكري الإسلام لهذا المنطق، كما اثبت ان المسلمين وضعوا المنهج الاستقرائي ، مفصلاً اسس المنهج الإسلامي التجريبي ، ومن رأيه أن جون ستيوارت مل وهو أول تجريبي حقيقي في العصور الحديثة قد اخذ علم المسلمين ونسبه إلى نفسه (وسواء اعترف بفضل اصحاب هذا المنهج الحقيقيين أو لم يعترف ، فنحن بُناته الاولون واساتذة الإنسانية في حضارتها الحديثة) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص٢٦جـ١، مطبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١م .

نقد الفلسفة لا يعني إنكار النظر والاستدلالات العقلي :

من المفيد ونحن في مدخل الدراسة، أن نوجه العناية إلى مبدأ إسلامي هام في مجالنا هذا، إذ أمرنا الشرع بالتدبر والنظر والتفكر، مما يرفع الإنسان المسلم إلى المستوى اللائق به من حيث إعمال العقل، ويجعله مسئولاً عن اختياراته وأعماله، ويميزه عن المقلدين السائرين في طريق الحياة على غير هدى ، فإن من الأصول التي جاء بها القرآن ـ كما يذكر ابن تيمية ـ أن الله تعالى قد أمر بالنظر والاعتبار والتفكر والتدبر في غير آية، فيقول «ولا يعرف عن أحد من سلف الأمة، ولا أئمة السنة وعلمائها أنه أنكر ذلك، بل كلهم متفقون على الأمر بما جاءت به الشريعة : من النظر والتفكر والاعتبار والتدبر وغير ذلك»[1] .

ومادام الأمر كذلك ، فلنا أن نشجب ما أشيع عن علماء السنة بأنهم يعارضون الفلاسفة ويرفضون مناهجهم ـ لمجرد الرفض ـ فإن هذه الفكرة من قبيل الأخطاء الشائعة التي نمر عليها بغير بحث ولا تدقيق ، وننساق وراءها بغير توقف للدرس، والمراجعة ـ إذ يجب التوقف هنا لكي ندرك أن الفرق شاسع بين لفظ (النظر والاستدلال)، وبين ما ابتدعه الفلاسفة والمتكلمون من نظريات باطلة عقلاً ـ كنظرية الفيض الفلسفية ـ فإن إنكارها، لأنها باطلة شرعاً وعقلاً ـ كما سنثبت ذلك ـ لا يستلزم إنكار جنس النظر والاستدلال[2] .

ولكنَ ما القول أمام المحتجين بأنهم مضطرون لاستخدام المنهج الفلسفي أمام غير المسلمين الذين لا يقرون بما ورد في الكتاب والسنة ولا يريدون الإقرار بهما ؟ .

والرد الذي نستخلصه من مؤلفات ابن تيمية على غزارتها ووفرة معلوماتها يتلخص في دعامتين :

الأولى: إن الله تعالى فطر عباده على معرفة الحق ، والرسل بعثت بتكميل الفطرة لا

---

(١) ابن تيمية : نقض المنطق ص٤٧ .

(٢) وينظر (معجم أعلام الفكر الإنساني) تصدير د. إبراهيم مدكور مادة « ابن تيمية » المجلد الأول ص٧١ / ٨٤ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤م بقلم د. مصطفى حلمي .

بتغيير الفطرة. قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت الآية ٥٣] فأخبر أنه سيريهم الآيات الأفقية والنفسية المبنية بان القرآن الذي أخبر به عباده حق، فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول[1] .

الثانية : أن الحجة قائمة إزاء البشر لإرسال الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ووقائع إرسالهم من الأخبار المشهورة المتواترة التي يستحيل إنكارها، بدليل ان الامم تؤرخ بالأحداث الكبرى ، فكذلك يؤرخ النصارى بميلاد المسيح عليه السلام ، ويؤرخ المسلمون بهجرة الرسول « ﷺ » .

ومنهج الرسل قائم على أنها (أمرت الخلق ان يعبدوا الله وحده وأن يطيعوا رسله، ولم يأمروا جميع الخلق بان يكتسبوا علماً نظرياً بوجود الخالق وصدق رسله، ولكن من جحد الحق أمروه بالإقرار به، وأقاموا الحجة عليه، وبيّنوا معاندته، وأنه جاحد للحق الذي يعرفه، وكذلك الرسول - ﷺ - كانوا يعلمون أنه صادق ويكذبونه »[2] .

ولا يسع المنكر إلا أن ينظر ويبحث كما فعل غيره ، وإذا لم يفعل فإن الحجة قائمة عليه لأنه بوسعه أن يعلم كما علم غيره، فقد خلق الله تعالى البشر متساوين في إمكانيات العلم والتعليم، كما أن الله عز وجل أرسل الرسل بالموازين العقلية التي يعرف بها البشر التمييز بين الأنبياء الصادقين والمتنبئين الكذبة .

---

(١) منهاج السنة جـ١ ص٨٢

(٢) النبوات ص٣٨ ويقول ص٤٣ (فليتدبر هذا الموضوع فإنه موضوع عظيم) .
ويشرح ذلك باستفاضة بقوله « فالعلم بانه كان في الأرض من يقول بانهم رسل الله وان اقواماً اتبعوهم وان اقواماً خالفوهم وان الله نصر الرُّسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم وعاقب اعداءهم هو من اظهر العلوم المتواترة واجلاها، ونقل هذه الامور اظهر وأوضح من نقل اخبار ملوك الفرس والعرب في جاهليتها، واخبار اليونان وعلماء الطب والنجوم والفلسفة اليونانية كابقراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وافلاطون وارسطو واتباعه، فكل عاقل يعلم ان نقل اخبار الأنبياء وأممهم وأعدائهم اكثر واكثر من نقل اخبار مثل هؤلاء ، فإن أخبار الأنبياء واتباعهم ينقلها من اهل الملل من لا يحصى عدده إلا الله ويدونوها في الكتب ... إلخ » .
(من كتاب شرح العقيدة الاصفهانية ص٩٠- مطبعة كردستان بمصر سنة ١٣٢٩هـ) .

اما عن الصلة بين أدلة العقول بصدق الرسول« ﷺ » فهي صلة طردية بحيث يلازم كل منها الآخر فلا يمكن الاستناد في عدم تصديقه إلى دليل عقلي بل من كذبه فليس معه لا عقل ولا سمع، كما أخبر الله تعالى عن أهل النار في سورة [الملك :الآية ١٠] ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ وقال تعالى لمكذبي الرسل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج :٤٦] [١].

العلاقة بين الوحي الإلهي والفلسفة

كانت غيرة الشيخ شديدة على الوحي الإلهي المعصوم الذي بلّغته الأنبياء والرسل، وخاتمهم نبينا محمد ـ ﷺ ـ ، وربما انحصر اهتمام ابن تيمية الأكبر في صد التيار الفلسفي الوافد من أمة وثنية يخالف دينها دين التوحيد الإسلامي، واتخذ منذ البداية الدفاع عن طريقة الأنبياءوالرسل لانها الأولى بالاتباع لانهم رُسل الله عز وجل وطرق معرفتهم مُيسَّرة للناس كافة ، فضلاً عن أنهم يأخذون بأيدي بني آدم إلى بر الأمان أي السعادة في الدنيا والآخرة ، فكيف نوازي بين الرُّسُل والفلاسفة، عندئذ لابد من التعرض بإيجاز للصلة بين الفلسفة والدين تاريخياً .

الصلة بين الفلسفة والدين :

تنبّه الشهرستاني مبكراً إلى « مقاومة الدين للفلسفة اليونانية منذ البداية مقاومة عنيفة لا هوادة فيها »[٢] .

وتوالت البحوث في العصر الحديث مؤيدة لوجهة نظر الشهرستاني ، ففي التأريخ للصلة بين الدين والفلسفة في الغرب ، يعتقد بعض الباحثين ـ كما يذكر إميل بوترو ـ أن الفلسفة نشأت في بعض وجوهها من الدين نفسه بعد أن اختلطت به عناصر ليست منه، فحفل الكثير من الأساطير والخرافات، ولكن مصدرها وحي أسدل عليه

---

(١) نشأة الفكر جـ١ ص١٢١ . (٢) النبوات ص٤٥ .

ستار النسيان فاختلط الدين بمزيج فيه صنعة الإنسان والوحي الإلهي ... وخطت الفلسفة خطوة أخرى، فأنكرت حاضنتها - أي العقيدة الدينية - وأخذت في محاربتها، ونمت ساخرة متعالية أو غير حافلة بالمعتقدات الدينية، ويروي بوترو أن الفلسفة وفقت شيئاً فشيئاً بين نفسها وبين الدين « ولقد سلم أفلاطون وأرسطو بالاعتقادات الموروثة في ألوهية السماء والأجرام السماوية، والتمسا بوجه عام في الخرافات أثراً أو بداية للفكر الفلسفي »[1] .

ويذكر المؤرخ الشهير ويلز أنه ما حلَّ القرن السابع قبل الميلاد أي إبان (الأسر البابلي لليهود كانت قد زالت من الوجود كل المعالم الدالة على العالم القديم، عالم المدنية السابقة للهلينية في أوروبا) وكان انتصار اليونان إيذاناً بسيادة نظامهم الاجتماعي وعقائدهم الدينية كدأب الامم المنتصرة على غيرها، وبمرور الأيام أصبح اليونان أكثر تديناً وأشد اعتقاداً في الخرافات، على حين استمرت عقائد المغلوبين حيّة وإن توارت عن الأنظار .

إن تحليل هذه الأحداث التاريخية الكبرى يقتضي الوقوف عندها بحثاً عن مصدر الفلسفة ، ودراسة للعلاقة بينها وبين الدين .

أما عن المصدر ، فقد زودنا كل من فيلون اليهودي والقديس أوغسطين بمعلومة مؤداها أن الفلسفة اليونانية مأخوذة من صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام تعلمها حكماء اليونان من هذه الصحف وأعطوها أسماء أخرى. وقال الإمام الغزالي بذلك أيضاً [2] .

وأما عن العلاقة، فيري أرنولد توينبي أن مسائل ما وراء الطبيعة تنازعها سلطانان مستقلان : الأول الوحي الإلهي ، الثاني العقل الفلسفي [3] .

وفي البحث المبتكر للدكتور فؤاد حسنين، عُني بدراسة ملامح العداء بين الثقافة

---

(١) أميل بوترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص١٤ ترجمة د.أحمد الأهواني - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٧٣م.

(٢) من كتاب(دور العرب عن تكوين الفكر الأوروبي) ص٢٠٣ / ٢٠٤ للدكتور / عبدالرحمن بدوي ط الانجلو سنة ١٩٦٧م.

(٣) مختصر دراسة التاريخ جـ٤ ص١٧٦

اليونانية والدين اليهودي وأورد خلاصة سفر (أمثال يوشع سيراح) مُبيّناً أنه كُتب لمحاربة العقلية اليونانية ومنع تغلغلها بين اليهود .

وقد أدّى استمرار مقاومة اليهود للثقافة اليونانية بالملك أنطيوخس (١٦٤ أو١٦٣ق.م) إلى اضطهادهم والإمعان في ذلك حتى أنه جمع كتبهم المقدسة وأمر بإحراقها ، كما فرض عقوبة الإعدام على من تضبط عنده نسخة من العهد القديم أو من يقوم بتأدية الطقوس أو الفرائض الدينية [١] .

نستخلص من هذا أن النزاع كان قائماً بين الفلسفة عند اليونان فى مبحث الإلهيات خاصة وبين العقيدة الدينية عند اليهود و أصلها وحى من السماء .

كذلك تستبد بنا الدهشة المقرونة بالإعجاب من التحليل الدقيق الذى سبق به ابن تيمية مؤرخى العصر، ولم لا وقد استند فى فهمه وعلمه على القرآن الكريم ؟ !

لقد عرف منه أن الرسالة عمت بنى آدم، إذ قال الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر الآية : ٢٤] .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾[النحل الآية: ٣٦، ٣٧] .

والمكذبون للرسل لا يستندون إلى أدلة عقلية . يقول ابن تيمية « لا يوجد أحد قدح في نبوتهم إلا أحد رجلين : إما رجل جاهل لم يعرف أحوالهم، وإما رجل معاند متبع لهواه ، وعامة من كذبهم في حياتهم كان معانداً، فالرؤساء كذبوهم لئلا تزول رئاستهم، والأتباع طاعة لكبرائهم »[٢] .

وفي مقارنة واعية يرى الشيخ أن فلسفة أرسطو جاءت في مبحث (ما وراء

---

(١) كتاب « التوراة الهيروغليفية » للدكتور فؤاد حسنين ص٢٠٩ ص١٩٤ ط دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ـ بدون تاريخ .

(٢) النبوات ص٢٣٩، ويقول أيضاً : إن كل واحد من أهل الملك والعلم قد يعارضون الرسل « فتاوى الرياض جـ٩ ص٣٨ » .

الطبيعة) بأباطيل لا يصح أن نجعلها في مستوى الإخبار عن الغيب الذى جاء به القرآن الحكيم، إذ أخبرنا عن عالم الغيب من الملائكة والجن والجنة والنار وغيرها ما لا يخفى على أحد، بل الرسول « ﷺ » إنما بُعث ليخبرنا بالغيب ،والمؤمن من آمن بالغيب ثم يتساءل متعجباً (أنترك الكتاب ونلجأ إلى أمثال أرسطو وذويه ومن أخبر برأيه، وهؤلاء جميعاً يرددون دعاوي مجردة بلا نقل صحيح ولاعقل صريح)[1]. ثبت إذن إخفاق الفلسفة فى أهم مباحثها وهو العلم الإلهي، فالحق فيه قليل وغالبه علم بأحكام ذهنية - لا حقائق خارجية - إذ ينقصه الإيمان بالله واليوم الآخر وأحسن الفلاسفة حالاً من يقر بمعاد الأرواح دون الأجساد .

وإذا نظرنا إلى القسم النظري، فإن أصح ما فيه العلوم الحسابية والرياضية، وينقسم العلم العملي بدوره إلى الأخلاق وتدبير المنزل والسياسة، وهذه العلوم نافعة، وهى التي تميز القوم عن جهّال بني آدم الذين ليس لهم كتاب منزّل ولا نبي مرسل، ففيها منفعة صلاح الدنيا وعمارتها ما هو داخل في ضمن ما جاءت به الرسل، وفيها أيضاً من قول الحق واتباعه الأمر بالعدل والنهى عن الفساد ما هو داخل ضمن ما جاء به الرسل عليهم السلام.

ولا غرو بعد ذلك أن يسهب ابن تيمية فى شرح موقفه الناقد للفلسفة بإبراز مكانة الأنبياء ودورهم فى هداية بني آدم علماً وسلوكاً.

طريق معرفة الأنبياء :

(يذهب شيخ الإسلام إلى أن طريق معرفة الأنبياء كطريق معرفة نوع من الآدميين خصّهم الله بخصائص يُعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم، كما يُعرف الأطباء والفقهاء والعلماء المعترف لهم بالمكانة العامة البارزة العامة في مجال تخصصاتهم، بحيث إذا رأى الإنسان نحو سيبويه وطب أبقراط وفقه الأئمة الأربعة ونحوهم كان إقراره بذلك من أبين الأمور « فمن أقر بحبس الأنبياء كان إقراره بنبوة محمد « ﷺ » في غاية الظهور أبين مما أقر أن في الدنيا نحاة وأطباء وفقهاء »[2] .

(١) نقض المنطق ص١٧٤ . (٢) النبوات ص٢٧ .

لهذا يقرِّب الله في القرآن الحكيم أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه ، وهود وقومه ، وصالح وقومه ، وشعيب ولوط ، وإبراهيم وموسى وغيرهم عليهم السلام . . .

كذلك فإن المتدبر للقرآن يعرف أن الله تعالى يُثبت وجود جنس الأنبياء ابتداء في السور المكية حتى يُثبت وجود هذا الجنس وسعادة من اتبعه وشقاوة من خالفه ، ولما كانت العرب تعرف النبوة بصفة مجملة - إذ سمعوا بموسى وعيسى وإبراهيم عليهم السلام سماعاً من غير معرفة أحوالهم - فلما عرفوا نبوة محمد « ﷺ » وأنه لابد من متابعته أو متابعة اليهود والنصارى ، عرفوا أن متابعته أولى [1] .

وإذا بحثنا في صحة الأدلة التي استند إليها أهل الكتاب بالإيمان بالأنبياء والرسل نجد أنه أصدق وآكد في إثبات نبوة محمد « ﷺ » والمتدبر لآيات القرآن الحكيم يدرك بسهولة أن الله تعالى « إذا خاطب جنس الإنس ذكر جنس الأنبياء وأثبت جنس ما جاءوا به ، وإذا ما خاطب أهل الكتاب المقرين بنبوة موسى خاطبهم بإثبات نبي بعده ، كما قال في سورة البقرة في خطابه لبني إسرائيل لما ذكر ما ذكره من أحوالهم مع موسى بإنعامه عليهم وبما فعلوه من السيئات ومغفرته لها »[2] .

قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة الآية : ٨٧] .

ثم ذكر محمداً « ﷺ » فقال :﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [البقرة الآيات : ٨٩-٩٠] .

خلاصة القول أنه مع ثبوت صحة نبوة نبينا محمد « ﷺ » بأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ولا نبي بعده، ترتب عليه الإقرار بأنه أعلم الخلق بالأمور الإلهية والمعرفة

---

(١) النبوات ص٢٧ (٢) النبوات ص١٦٥

الدينية، وأرغبهم في تعريف الناس وأقدرهم على بيانها وتعريفها بحيث لا يصل إلى مرتبته أحد من البشر قطْ، لا نبي ولا رسول ولا فقيه ولا متكلم ولا فيلسوف « فهو فوق كل أحد في العلم والقدرة والإرادة، وهذه الثلاثة بها يتم المقصود، ومن سوى الرسول « ﷺ » إما أن يكون في علمه بها نقص أو فساد ، وإما ألا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك فلم يبينه ، إما لرغبة وإما لرهبة ، وإما لغرض آخر ، وإما أن يكون بيانه ناقصاً ليس بيانه البيان عما عرفه الجنان »[1] .

معالم منهجه في نقد الفلسفة :

أولاً : الاكتفاء بطريقة القرآن ، لاسيما في أسمى قضيتين من قضايا الإيمان وهما :

١. إثبات الخالق عز وجل .

٢. النبوة .

إن القرآن يثبت دلائل الربوبية بطرق كثيرة منها :

١ـ تارة يدلنا بالآيات المخلوقة على وجود الخالق ويثبت علمه وقدرته ومشيئته .

٢ـ وتارة يدلنا بالنعم والآلاء على وجود بره وإحسانه المستلزم رحمته .

٣ـ كذلك ينبهنا القرآن على الطرق الاعتبارية التي بها يستدل على مثل ما في القرآن .

كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت الآية :٥٣] .

فأخبر سبحانه أنه يُرِيَ عباده من الآيات المشهودة التي هي أدلة عقلية ما يتبين أن القرآن حق[2] .

أما عن النبوة، فإن الرسول « ﷺ » تارة يستدل بالأدلة العقلية الواردة بالقرآن الحكيم، وتارة يخبر بها خبراً مجرداً « لما قد أقامه من الآيات البينات والدلائل اليقينيات على أنه رسول الله المبلّغ عن الله، وأنه لا يقول إلا الحق »[3] .

---

(١) ابن تيمية : الفرقان بين الحق والباطل ص٤٦ /٤٧ تعليق محمد أبوالوفا عيد ـ نشر زكريا علي يوسف .

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية ص٩ /١٠ /١١ .

(٣) ابن تيمية : الفرقان بين الحق والباطل ص٩٤، نشر زكريا علي يوسف / مطبعة العاصمة ش الفلكي بالقاهرة.

ولابد إزاء هذه القواعد المقررة أنه إذا ثبت صدق الرسول « ﷺ » وجب تصديقه فيما يخبر به [1] .

الثاني: ضرورة التقيد باستخدام الألفاظ الشرعية الواردة بالكتاب والسنة للتعبير عن حقائق الإسلام لما لها من ذاتية ودلالات خاصة تنفرد بها دون غيرها من الكلمات والمفردات والاصطلاحات المستخدمة بواسطة الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم.

وهذه القضية مازالت حية لم يطو التاريخ صفحاتها بعد إذ تدوي أصداؤها ، في أسماعنا حيث نلاحظ استخدام مصطلحات جديدة في التعبير عن الإسلام والمسلمين (أمثال المرونة، التحرر، التشدد، الجمود ... إلخ). فيقع أصحابها فيما وقع فيه الغزالي من قبل حيث (أخذ مخ الفلسفة فألبسه لحاء السنّة) .

ويشرح ابن تيمية هذه القاعدة الأصولية في منهج المعرفة الإسلامية بقوله : « والتعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها، فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها ، هي تنزيل من حكيم حميد، والأمة متفقة عليها ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم ، وفيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه ، والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع، ثم قد يجعل اللفظ حجة مجردة ، وليس هو قول الرسول« ﷺ » الصادق المصدوق، وقد يضطرب في معناه، وهذا أمر يعرفه من جرّبه من كل الناس »[2] .

ثالثاً: إن الادلة الشرعية عقلية أيضاً .

وفيما يتعلق بالصلة بين الشرع والعقل يقول ابن تيمية :

« وقد ذهب خلائق من المتفلسفة والمتكلمة والمتفقهة والمتصوفة والعامة، إن فيما أخبر به الشارع أموراً قد تعلم بالعقل أيضاً، وإن كان الشارع لم يذكر دلالته العقلية »[3] .

---

(١) نفسه م.

(٢) النبوات ص٢٣٥ أليس الأولى بنا بعد هذا البيان الشافي أن نتقيد بألفاظ القرآن والحديث (المسلمون المؤمنون القاسطون ، المحسنون .... إلخ) .

(٣) الفتاوى ط الرياض جـ١٩ ص٢٣١ .

أما هو فإنه يرى أن الشارع نبَّه في كل ما يمكن علمه بالعقل على دلالة عقلية ومن ثم يمزج الشرع بالعقل ، ويتضح ذلك لمن يتأمل وجوه دلالة الكتاب والسنة وما فيها من جلي وخفي وظاهر وباطن .

وأوضح الأمثلة على ذلك هو الاستدلال على الخالق عز وجل بخلق الإنسان ، فإنه استدلال فيه غاية الحسن والاستقامة « وهي طريقة عقلية صحيحة وهي شرعية دلَّ القرآن عليها وهدى الناس إليها وبيَّنها وأرشد إليها ، وهي عقلية، فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن ومولوداً ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة ، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول « ﷺ » ، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول« ﷺ » أو لم يخبر ، لكن الرسول « ﷺ » أمر أن يستدل به ودل به وبيَّنه واحتج به، فهو دليل شرعي لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به ، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته »[1] .

وهناك أدلة أخرى في القرآن مثل الاستدلال بالسحاب والمطر المذكور في القرآن في غير موضع - وهو عقلي شرعي - كما قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة الآية: ٢٧] . فهذا مرئي بالعيون ، وقال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت الآية :٥٣] ثم قال ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت الآية :٥٣] ويلفتنا ابن تيمية إلى أن هذه الآيات التي يريها الناس حتى يعلموا أن القرآن حق « هي آيات عقلية يستدل بها العقل على أن القرآن حق،وهي شرعية دل الشرع عليها وأمر بها، والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقلية التي يستدل بها العقل، وهي شرعية لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها، ولكن كثيراً من الناس لا يسمى دليلاً شرعياً إلا ما دل بمجرد خبر الرسول « ﷺ » وهو اصطلاح قاصر »[2] .

كذلك فإن الله تعالى أخبر في غير موضع من القرآن أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم

---

(١) النبوات ص٤٨ .   (٢) نفسه ص٤٨ .

ويُعلمـهم الكتاب والحكمـة ، فالكتاب هو الكلام المنزل الذي يكتب والحكمة هي السنة ، وهي معرفة الدين والعمل به، وقد قال تعالى :﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس الآية ١٠١] وقـال تعـالى ﴿ ... وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾ [الكهف الآية:٥٦] فـفرق بين الآيات الدالة على العلم التي يعلم بالعقل أنها دلائل للرب عز وجل ، وبين النذر ، وهو الإخبار عن المخوّف ، كأخبار الأنبياء بما يستحقه العصاة من العذاب، فهذا يعلم بالخبر والنذر ، ولهذا قال ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[الإسراء الآية :١٥] ، وأما الآيات فتعلم دلالتها بالعقل وأنبياء جاؤا بالآيات والنذر [١] .

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾[الجاثية الآية:٦] ، استعرض ابن تيمية أقوال المفسرين في معنى الآية ورجَّح ما صوّبه منها وهي أنها آية من آيات الله أي علامة من علاماته ودلالة من أدلة الله وبيان من بيانه، فإن كل آية قد بين فيها من أمره وخبره ما هي دليل عليه وعلامة عليه فهي آية من آياته، وهي أيضاً دالة على كلام الله تعالى المباين لكلام المخلوقين فهي دلالة على الله سبحانه وعلى ما أرسل به رسوله « ﷺ »، وهي عجب أيضاً من العجائب، فإن آيات الله كلها عجيبة فإنها خارجة عن قدرة البشر، والقرآن كله عجب تعجبت به الجن كما حكى عنهم تعالى أنهم قالوا :﴿ ..... إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن الآية :١-٢] فإنه كلام خارج عن المعهود من الكلام[٢].

ويستنتج من هذا أن العلوم قسمان :

أ- قسم يعلم بالشرع فقط، وهو ما يعلم بمجرد إخبار الشرع مما لا يهتدي العقل إليه بحال، ولكن الشارع، قد هدى إلى دلالتها فهي الصفة (عقليات الشريعة) أو عقلي الشارع أو العقل المشروع) [٣] .

ب - قسم يعلم بالعقل فقط ، كالطب والحساب والصناعات، فهي عقلية من غير الشارع .

---

(١) نفسه ص١٦٢ .	(٢) نفسه ص١٧٧ - ١٧٨ باختصار .

(٣) نفسه ص٢٣٢ .

وبهذا التحرير يتبين أن عامة المتفلسفة وجمهور المتكلمة لم تقدر العلوم الشرعية حق قدرها فتوهموا علو العقلية عليها لأنهم ظنوا أن العلوم الشرعية تقتصر على ما أخبر الشارع بها، وهو غير صحيح ، لأن الشرعيات تشمل ما أخبر الشارع بها وما دل عليها. « وما دل الشارع عليه ينتظم جميع ما يحتاج إلى علمه بالعقل وجميع الأدلة والبراهين وأصول الدين ومسائل العقائد، بل قد تدبرت عامة ما يذكره المتفلسفة والمتكلمة والدلائل العقلية فوجدت دلائل الكتاب والسنة تأتي بخلاصته الصافية عن الكدر، وتأتي بأشياء لم يهتدوا لها، وتحذف ما وقع منهم من الشبهات والأباطيل مع كثرتها واضطرابها »[1] .

إن التقسيم الصحيح إذاً للعلوم الشرعية أنها تنقسم إلى: عقلية وسمعية ، فإن كل علم عقلي أمر به أو دل الشرع عليه فهو شرعي أيضاً، إما باعتبار الأمر أو الدلالة أو باعتبارهما جميعاً.

أما العلوم العقلية الخارجة عن دائرة الشرعية أي ما لم يأمر بها الشارع ولم يدل عليها، فهي تجري مجرى الصناعات: كالفلاحة والبناية والنساجة، ويصل من كل هذا إلى أن مسمى العلوم الشرعية أشرف وأوسع، وأن بين العقلية والشرعية عموماً وخصوصاً ليس أحدهما قسيم - أي مقابل - الآخر وإنما السمعي قسيم العقلي، وأنه يجتمع في العلم أن يكون عقلياً وهو شرعي بالاعتبارات الثلاثة :

إخباره به، أمره به، دلالته عليه، فالنسبة إذن إلى الشرع بهذه الوجوه الثلاثة [2].

نقد المنطق الأرسطي

يرى ابن تيمية أن تقدم القياس المنطقي الأرسطاليسي لا يفيد العلم ، ولا يدعي شيخ الإسلام أن النقد نقده، ولكن يرجعه إلى نُظّار المسلمين مع كثرة التعب ليس فيه فائدة علمية بل كل ما يمكن علمه بدونه، ففيه تطويل كثير متعب فإنه متعب للأذهان مضيع للزمان، ويضرب مثالاً على ذلك بمن يريد مثلاً الوصول إلى مكة أوغيرها من البلاد فإذا سلك الطريق المستقيم المعروف وصل في مدة قريبة وبسعي

(١) نفسه ص ٢٣٣ . (٢) نفسه ص ٢٣٤

معتدل، ولكن إذا قيض له لمن يدور به طرقاً دائرة ـ ويسلك به مسالك منحرفة يتعب تعباً كثيراً حتى يصل إلى الطريق المستقيم إن وصل . وإلا فقد يصل إلى غير المطلوب، فيعتقد اعتقادات فاسدة . وقد يعجز بسبب ما يحصل له من التعب والإعياء ، فلا هو نال مطلوبه ولا هو استراح .

ويشارك ابن تيمية نظار المسلمين في وصف هذا القياس بأنه استعمال لطرق غير فطرية ويعذب النفوس بلا منفعة، كما أن القياس الأرسطي لا يفيد إلا بأمور كلية، لا يفيد العلم بشيء معين من الموجودات، بل الأيسر والأبين العلم بالمعينات لا الكليات(١).

والقياس الأرسطي لا يتضمن إلا شكل الدليل وصورته إذ إن الكليات تقع في النفوس بعد معرفة الجزئيات المعينة، أي أن النظريات العلمية العامة لا يتوصل إليها إلا بعد معرفة الجزئيات في العلوم المختلفة والتوصل منها إلى استنباط القانون العام الذي ينتظمها جميعاً « ومن تدبر جميع ما يتكلم فيه الناس من الكليات المعلومة في الطب والحساب والطبيعيات والتجارات وغير ذلك وجد الأمر كذلك »(٢) .

ولم يكن ابن تيمية إذن وحده معارضاً للمنطق الأرسطي، فقد تعرض هذا المنطق للنقد قديماً وحديثاً ، يقول أستاذنا الدكتور النشار رحمه الله « فقد عارضه الرواقيون، وهاجمه الأصوليون الإسلاميون لاستناد أبحاثه على أبحاث ميتافيزيقية، ورفضوا أن تكون غايته الوصل إلى الماهية الكاملة، إذ إن معنى هذا البحث المنطقي يصل إلى محاولة تحديد الذات الإلهية وغيرها من الموجودات والكائنات التي لا يمكن التوصل إلى حقيقتها ، لأن العلم بها توقيفي لا توفيقي »(٣) .

---

(١) ابن تيمية ـ الرد على المنطقيين ص٢٤٨-٢٥٢ ووصف بيكون أيضاً المنطق بأنه مضيعة للزمان كما سنرى .

(٢) السيوطي ـ صون المنطق جـ٢ ص١٥٥ وقد عرضنا بإسهاب لآراء ابن تيمية المنطقية بكتابنا « منهج البحث الإسلامي في العلوم الإنسانية » ط دار الدعوة بالإسكندرية .

(٣) المنطق الصوري ص٣٩ نقلاً عن جذور علم الاستغراب . .د. محمود ماضي ص٣٧ (وقفة مع الرد على المنطقيين لابن تيمية) ط دار الدعوة بالإسكندرية ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

وفي العصر الحديث عارضه مناطقة وفلاسفة أمثال « بيردي لامي (١٥١٥-١٥٧٢م) فقال : « إن كل ما قاله أرسطو فهو وهم ونشر كتاباً باللاتينية (في الأخطاء الأرسطوطالية) وديكارت الذي اتهم القياس الصوري بالعقم والإجداب لأنه يفسر لنا ما نعلمه ، ولا يكشف لنا عما يجعله، وهو نفس ما انتهى إليه جون استيوارت مل ، وكذلك الدكتور زكي نجيب محمود »[١] .

وهناك من الشواهد ما يُرجِّح تأثر بيكون بنقد ابن تيمية للمنطق الأرسطي كما يتضح لنا بالمقارنة بينهما ، بل كان شيخنا أسبق منه .

إذ يرى أن القياس الأرسطي استدلال صوري لا يهمه سوى صحة الانتقال من مقدمات إلى نتائج تلزم عنها، سواء كانت تلك المقدمات صادقة من حيث الواقع أو كاذبة، ولا قيمة للقياس في تحقيق هدف اكتشاف قوانين العالم الطبيعي .

« وإذا فرضنا أن مقدمات القياس الأرسطي صادقة وإذا فرضنا انتقالنا إلى النتيجة سليم صحيح، كانت النتيجة عقيمة، أي لا تحوي جديداً عما أثبتناه من قبل في المقدمات، ولكنا نبغي من المنطق أن يدفعنا إلى نتائج جديدة ومعارف جديدة ، إذن فالقياس مضيعة للوقت »[٢] . كذلك أثبت أستاذنا الدكتور النشار - رحمه الله - أن اعتبار ابن تيمية للحس والتجربة أساساً أو مصدراً للعلم يسبق بيكون ومل في جعلهما التجربة أو الاستقراء أساس المعرفة [٣]، كذلك يرى برتراندرسل أن آراء آرسطو كانت عقبة كؤود في سبيل التقدم « فمن بداية القرن السابع عشر ، ترى كل خطوة تقريباً من خطوات التقدم العقلي مضطرة أن تبدأ بالهجوم على رأي من الآراء الأرسطية ، ولا يزال هذا يصدق على المنطق حتى يومنا هذا »[٤] .

---

(١) جذور علم الاستغراب للدكتور محمود ماضي ص٤٣ و ص١٢٦ .

(٢) الاستقراء والمنهج العلمي د. محمود زيدان ص٦٢ / ٦٣ ط مؤسسة شباب الجامعة، بالإسكندرية ١٩٨٠م .

(٣) مناهج البحث ص٢٣٧ ويقول ويكاد مل يتكلم بأسلوب ابن تيمية في كتابه: Usyetem of Zegic

(٤) تاريخ الفلسفة الغربية ، راسل مصور يذكر مثال الناز جـ١ ص٢٥٨ ترجمة د. زكي نجيب محمود ط لجنة التاليف والترجمة ١٩٦٧م .

ويُكمل أستاذنا الدكتور النشار - رحمه الله - شرح القضية الهامة بأبعادها المنهجية وصلتها بالتميُّز الحضاري الإسلامي المبني على اختلاف الاتجاه ، فيقول « إن اتجاه الإسلام - كمنهج - أن يفي بالحاجات الإنسانية والحاجة الإنسانية لا تستقر ولا تسكن، إنها في تغير مستمر فلا نتوقف فقط أمام (ماهيات جامدة) . إن حقائق الأشياء الإنسانية والطبيعية في تغير مستمر ، فنلجأ نحن فقط إلى تحديد أغراضها وخواصها ، أما أن يحاول اكتناه الماهية ، فمطمع عسير، كما أن نتكلف قياساً يقتصر على مقدمتين فإن معناه أن نحصر أنفسنا في طرق ميكانيكية، كما أن من الخطأ أن نقتصر في الاستدلال العقلي على القياس والاستقراء والتمثيل .

إننا نستطيع أن نصل إلى صور أكثر - إذا حللنا العمليات الفكرية - ولقد نادى ابن تيمية بفكرة « الكم » أساساً لكل عملية فكرية، ولم يؤمن بسلطان الكيف إلا نادراً، كما أنه لم يؤمن بالنظر البحت، بل نادى بالتجربة، إنه كان يتكلم باسم الروح الحضاري الإسلامي، مُمجداً التجربة معلناً أنها هي الطريق الوحيد للوصول إلى العلم سواء أكان يقينياً أو ظنياً »[1] .

ويستخلص من هذا أن المنطق شيء وضعي اصطلاحي - كما وصفه ابن تيمية - وليس قانوناً عقلياً ملزماً[2] .

ثم يصل موقف مواجهة المنطق إلى ذروته عندما تبيّن صلته الوثيقة بالميتافيزيقا لدى فلاسفة اليونان .

صلة المنطق بالميتافيزيقا عند أرسطو

لشرح هذه الصلة، لابد من البدء بمقدمة عن تصور الوجود عند فلاسفة اليونان، فقد ظنّ أصحاب فيثاغورث أن الأعداد المجردة موجودة خارج الذهن، ثم تبين لأفلاطون وأصحابه غلط ذلك، وظنوا الماهيات المجردة كالإنسان والفرس المطلق

(١) مناهج البحث عند مفكري الإسلام - واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي ص٢٩١ ط دار المعارف ١٩٦٥م .

(٢) نفسه ص ٢٣٠

موجودات خارج الذهن، وأنها أزلية أبدية، ثم تبين لأرسطو وأصحابه غلط ذلك فقالوا بل هذه الماهيات المطلقة موجودة في الخارج مقارنة لوجود الأشخاص، وتصوروا ماهية مجردة بنفسها من حيث هي هي من غير أن تكون ثابتة في الخارج أو في الذهن، الإنسان من حيث هو هو والوجود من حيث هو هو، والسواد من حيث هو هو، ظناً أن هذه الماهية المجردة من جميع القيود الثبوتية والسلبية متحققة في الخارج.

ويرى ابن تيمية أن خطأ أرسطو في هذا التصور لا يقل من خطأ المثالية الأفلاطونية في تجريدها للمثل أو الفيثاغورية المتأخرة في تجريدها للعدد، ويقرر أنه ليس كل ما يفرضه الذهن ممكن وجوده وتحققه في الخارج ،مقسِّماً الإمكان إلى نوعين : الإمكان الذهني والإمكان الخارجي مستخلصاً من القرآن الكريم طريقة إثبات الإمكان الخارجي في إثبات العقائد ، لا فكرة الإمكان الذهني « ويضع أمثلة معينة حاسمة، فيثبت إمكان المعاد بالإمكان الخارجي المتحقق، ويعطي الأمثلة القرآنية على هذا: فقد أخبر الله تعالى عمن أماتهم ثم أحياهم، أو عن المضروب بالبقرة ، أو عن أصحاب الكهف، أو يستدل على ذلك بالنشأة الأولى، وأن الإعادة أهون من الابتداء أو الاستدلال بخلق السماوات والأرض، فإن خلقها أعظم من إعادة الإنسان، أو الاستدلال بخلق النبات (من الأرض الهامدة) ويورد ابن تيمية الآيات القرآنية. والقرآن هو السجل الحقيقي الواقعي للوجود ، إن حوادثه المتحققة خارجاً تثبت المعاد إثباتاً كاملاً »[1] .

وتنبه ابن تيمية أيضاً إلى أن الوجود المطلق الكلي في سلسلة الموجودات، وجوه الجنس الأعلى، أقل الأجناس مفهوماً أو أقلها خصوبة ، فكرة مجردة لا حظٌ لها في الواقع ، بينما الله تعالى هو خالق الموجودات عند المنطق الديني لابن تيمية [2] .

كذلك ربط الشيخ بين نظرية اليونان في العلم الكلّي وأنه أشرف العلوم ، وأن

---

(١) مناهج البحث ص٢٧٣ ويرى الدكتور النشار أن منطق ارسطو قوبل في المدرسة الكلامية الأولى حتى القرن الخامس -بخلاف ما هو شائع بين الباحثين- أسوا مقابلة فهاجمته جميع الفرق الكلامية معتزلية أو اسقرية او شيعية او كرامية، وأول من خلط المنطق بأصول المسلمين أبو حامد الغزالي كما نص على ذلك ابن تيمية ص٨٠ مناهج البحث.

(٢) نفسه ص٢٧٥ بتصرف يسير .

العلم الجزئي علم غير مكتمل ، ونظرية متفلسفة الإسلام - متابعين لأرسطو، أن الله تعالى يعلم الكليات فقط ، وأنه لا يعلم الجزئيات .

يقول أستاذنا الدكتور النشار « وهكذا أدرك ابن تيمية بعمق الصلة بين المنطق الأرسطاليسي والميتافيزيقا الأرسطاليسية، وثبت تماماً أنه من تمنطق تزندق »[1] .

ويؤيد النتيجة نفسها بصيغة أخرى أستاذنا الدكتور إبراهيم مدكور فيقرر بأن أرسطو لم يعن كثيراً بمعرفة الله تعالى (ولم يعوِّل عليه في قوانينه الأخلاقية والسياسية، وكأنما شغل بالعالم الحي وحده دون أن يفكر في قوة خارجه تدبره، بعد أن استكملت الطبيعة وسائلها ونظمها ، وانتهى بها المطاف إلى محرك يحرك غيره ولا يتحرك هو، فهو محرك ساكن، ويمكننا أن نقول : إن هذا المحرك الساكن هو الإله عنده ، ولا يذكر من صفاته إلا أنه عقل دائم التفكير، وتفكيره مُنصَب على ذاته .

وواضح أن هذه الفكرة تختلف كل الاختلاف عن العقيدة الإسلامية [2] .

وفي النهاية ، يقرر أستاذنا الدكتور النشار بعد استيعابه الشامل لمباحث أصول الفقه وقضايا المنطق « أنه منذ اليوم الأول للإسلام أدرك المسلمون أنهم لن يشغلوا (بالجوهر) أو (بالماهية) أو (بالكُنْه) وكل التصورات العليا النهائية للروح اليوناني، وإنما يشغلون فقط (بالخواص) ، وإدراج الخواص في نسج منهجي متكامل ، وقد كان هذا شغل الروح الإسلامي الجديد ووسمه، فلما أتى - فيما بعد - منطق أرسطو أكبر معبِّر عن روح اليونان ، لُفِظ حتماً ، ووصل الأمر إلى إعلان تكفير من يشتغل به، ولم يكن الإعلان ناشئاً عن ضيق أفق أو تزمت مذهبي، وإنما كان إعلاناً صادراً عن روح الحضارة الإسلامية وروح القرآن الإلهي الذي دعا إلى وضع منهج مختلف في كل خصائصه عن منطق أرسطو »[3] .

---

(١) نفسه ص٢٣٥ .

(٢) مقال في الفلسفة ص ١٤٩ / ١٥٠ من كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية . ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠م .

(٣) نشأة الفكر . جـ١ ص٤٣/٤٤ .

لم يكتف ابن تيمية بهدم المنطق الأرسطي فقط وإنما أقام على أنقاضه منطقاً آخر يستمد دعائمه من القرآن الكريم والسنة النبوية .

لذلك فقد استحق أن يعلق عليه أستاذنا الدكتور النشار بقوله (ولو أن الدراسات المنطقية سارت على ما سار عليه شيخ الإسلام بدلاً من الشروح والنقول لكان لهذا المنطق الآن مكانة أخرى) .

إن الناظر لمنهج ابن تيمية هذا يجده منهجاً قرآنياً كاملاً يستمد من القرآن مصطلحاته وطرقه للبرهنة على القضايا التي صال فيها المتكلمون والفلاسفة وجالوا من طرق غير صحيحة فلم يغن عنهم ذلك شيئاً سوى إتعابهم لأنفسهم ولغيرهم .

ولنتأمل الآن استخدام ابن تيمية للبراهين القرآنية تبعاً لمنهجه هذا :

البيّنات والهدى :

يقول ابن تيمية أن البيّنات جمع « بيِّنة » وهي الدليل الواضح الذي لا لبس فيه، ولقد بعث الله الرسل بالبينات وهي الأدلة الدامغة على صدق رسالتهم ونبوتهم .

أما الهدي فهو السبيل الذي يؤدي بسالكه إلى النجاة من عذاب الله يوم القيامة وفوزه بالنعيم المقيم .

ويضرب ابن تيمية مثالاً لذلك بمن أراد أن يسافر إلى مكة، فهو يجد من يدله على الطريق الصحيح المؤدي إليها فهذا هو الهدى، والبيِّنات هى العلامات التي تدله على أنه يسلك الطريق الصحيح، ويجد من يصف له الدليل الذي يقوده إلى هدفه بعيداً عن الجهلة الذين يدعون إرشاده وهم لا يعرفون الطريق الصحيح المؤدية إلى مقصده .

فإن أطاع السائل وسار في الطريق الصحيح وصل إلى غايته أما إن اتخذ لنفسه طرقاً أخرى فإنه مضيع لوقته وجهده وقد لا يصل إلى هدفه مطلقاً .

ولقد تواترت الآيات بذكر (البيّنات) وذكر (الهدى) ولقد جمع الله تعالى

بينهما في قوله تعالى :﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ.... ﴾[البقرة الآية :١٨٥] .

أما « الفرقان » فإن كتاب الله فرقان بين الحق والباطل، ولقد جاء الرسل ليفرقوا بين المهتدين وغيرهم، فالفرقان أسماه الله فرقاناً لأنه يفرق بين من يسير على الهدى ويتبع الرسول « ﷺ » على بيّنة ومن يسير وفق هواه لا يدري إلى أين يصير.

الميزان القرآني :

يقول ابن تيمية إن المقصود بالميزان الذي كثر ذكره في القرآن، الأداة التي وهبها الله تعالى للإنسان ليفرق بين الحق والباطل، ألا وهي العقل الصحيح، الذي يقيس بها الإنسان ما ينفعه وما يضره، وهو الذي يزن به المرء أمور دينه ويعرف عن طريقه صدق المرسلين لما أتوا به من بينّات وخطوا طريقاً للهدى .

وهو ميزان صادق يعطي كل شيء قدره ويعرف له قيمته .

قياس الأوْلى : (على وزن الأفعل)

يرى شيخ الإسلام أن الاستدلال على وجود الله تعالى وإثبات صفات الكمال له يقوم في القرآن من باب قياس الأوْلى ، فإذا كان أحداً من خلقه تعالى متصفاً بالكمال في بعض صفاته فمن باب أوْلى أن يكون خالقه متصفاً بصفات الكمال هذه بكيفية تليق به سبحانه وتعالى .

وبهذا القياس يستدل ابن تيمية على وجود إثبات الصفات والأسماء لله سبحانه وتعالى كالسمع والبصر والكلام لأنها صفات كمال، وقد اتصف بها من مخلوقات الله، فمن باب أولى أن يكون الخالق جل وعلا متصفاً بها بالكيفية التي تليق به سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى الآية :١١]

ويستخدم القرآن الكريم قياس الأوْلى هذا في إثبات عدم الشرك بالله عز وجل يقول تعالى ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم الآية:٢٨] .

فإذا كان حال الخلق هكذا فكيف يرضى الله تعالى أن يكون له شريكاً في الملك من باب الأولى، لأن عدم الشرك صفة من صفات الكمال .

ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾[النحل الآية:٥٧] .

إلى غير ذلك من الاستدلالات القرآنية التي تقوم على دليل « الأوْلى » وهو ما استخدمه الشيخ كواحدة من طرق البرهان القرآنية تفوق في قوة إقناعها وتأثيرها كل أدلة المتكلمين ومناهجهم في طرق الاستدلال .

كذلك يستخدم الله سبحانه وتعالى دليل الأوْلى هذا عندما يستدل على قضية البعث والنشور يوم القيامة وهي القضية التي أنفق فيها الفلاسفة والمتكلمون جل وقتهم ولم يصلوا فيها إلى ما يفيد يقيناً أو إقناعاً ، فيسوق الله تبارك وتعالى في قرآنه أربعة طرق استدلالية على إمكانية البعث وكلها تقوم على (اللزوم) و(الأوْلى) .

١ـ الدليل الأول على البعث والنشور ووجود يوم القيامة يقدمه الله تبارك وتعالى من خلال روايته عن أموات أحياهم الله في الدنيا بعد أن أماتهم، مثل قوله عن الذي مر على قرية وهو منكر للبعث فأماته الله ثم أحياه .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ.... ﴾[البقرة الآية :٢٥٩] . وكما في سورة الكهف عن الفتية الذين آمنوا بربهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا .... ﴾[الكهف الآيات ١٩-٢١] .

ويقول بعض المفسرين أن الله بعثهم في زمن كان الجدل فيه قائماً حول البعث وهل هو بالجسد أم بالروح فقط، كما هو حال النزاع القائم بين الفلاسفة دائماً وبين المتكلمين .

٢ـ ويقدم الله عز وجل دليلاً آخر ليبرهن على نفس القضية من خلال إثباته أن الخلق الأول أيسر من إعادته فيقول :﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس الآية ٧٨-٧٩] .

٣ـ ثم بدليل آخر وهو أن خلق السماوات والأرض والجبال أصعب بكثير من خلق الناس وإعادتهم بعد موتهم (أحياء) ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس الآية :٨١-٨٢] .

٤ـ واخيراً يستدل الله سبحانه وتعالى بالأرض الميتة ينزل عليها المطر، فتحيا بعد موتها يقول [**إن الذي أحياها لمحيي الموتى**]، ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾[يس الآية٣٣] .

دليلا الاعتبار واللزوم :

١ـ الاعتبار :

وهو يستخدم كثيراً في القرآن عند الحديث عن الأمم السابقة، فالله عندما يقص علينا قصصهم لا يقصد مجرد الرواية وإنما يقصد تعالى أن نعتبر بحالهم .

يقول تعالى :﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾[طه آية :١٢٨] .

٢ـ اللزوم :

وهو الناتج عن دليل الاعتبار، من قصص الأنبياء الحديث عن الأمم التي أهلكها الله تعالى لظلمها وهي كثيرة في عدة مواضع يذكرها ، لزوم ذلك أن تتجنب ما فعلت هذه الأمم حتى لا يصيبها ما أصابهم، وأكثر هذه القصص قصة بني إسرائيل .

١ـ ينظر كتابنا « مناهج بحث علماء الحديث والسنة في أصول الدين » علم الكلام ط دار الدعوة بالإسكندرية .

رد ابن تيمية على الفلاسفة القائلين بنظرية الفيض أو التولد [1] .

استدل ابن تيمية بآيات القرآن الحكيم في دحض نظرية الفيض أو التولد لأفلوطين التي أخذ بها الفارابي وابن سينا ، من ذلك قوله تعالى :﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ۝ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[البقرة الآية ١١٦-١١٧] ، فأخبر أنه يقضي كل شيء بقوله (كن) لا بالتولد المعلوم عنه .

ولذلك قال سبحانه :﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام الآية : ١٠٠-١٠١] وتفسير الآية واضح من سياقها .

فأخبر سبحانه أن التولد لا يكون إلا عن أصلين كما تكون النتيجة عن مقدمتين، وأضاف إلى ذلك ما يسلم به العقل من أن سائر المعلولات المعلومة لا يحدث المعلول إلا باقتران ما تتم به العلة، فأما الشيء الواحد وحده فلا يكون علة ولا والداً قط، لا يكون شيء في هذا العالم إلا عن أصلين، ولو أنهما الفاعل والقابل كالنار والحطب والشمس والأرض ، فأما الواحد وحده فلا يصدر عنه شيء ولا يتولد .

من ذلك يتبين أن القرآن دلَّ على أنهم أخطأوا طريق القياس في العلة والتولد، حيث جعلوا العالم يصدر عنه بالتعليل والتولد، وكذلك قال ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الذاريات الآية :٤٩][2] .

وقال تعالى ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[الفرقان الآية :٣٣][3]

وهؤلاء الصابئة ـ عبدة الكواكب ـ قد أتوا بمثل وهو قولهم (الواحد لا يصدر عنه ويتولد عنه إلا واحد) .. ولهذا قال مجاهد ـ وذكره البخاري في صحيحه ـ في

---

(١) ينظر كتابنا (ابن تيميه والتصوف ص٤٩٣ / ٥٠١) دار الدعوة الإسكندرية ١٤٠٣هـ ١٩٨٢ /م .

(٢) ابن تيمية : نقض المنطق ص١٠٧

(٣) نفسه ص١٠ / ١٠٩

الشفع والوتر (أن الشفع هو الخلق فكل مخلوق له نظير والوتر هو الله الذي لا شبيه له) فقال (**أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة**)؟ وذلك أن الآثار الصادرة عن العلل والمتولدات في الموجودات لابد فيها من شيئين: أحدهما يكون كالأب والآخر يكون كالأم القابلة ، وقد يسمون ذلك الفاعل والقابل كالشمس مع الأرض، والنار مع الحطب، فأما صدور شيء واحد عن شيء واحد ، فهذا لا وجود له في الوجود أصلاً .

وأما تشبيههم ذلك بالشعاع مع الشمس، وبالصوت كالطنين مع الحركة والنقر، فهو أيضاً حجة لله ورسوله « ﷺ » والمؤمنين عليهم، ذلك أن الشعاع إن أريد به نفس ما يقول بالشمس، فذلك صفة من صفاتها، وصفات الخالق ليست مخلوقة، لا هي من العالم الذي فيه الكلام .

وإن أريد بالشعاع ما ينعكس على الأرض، فذلك لابد فيه من شيئين : وهو الشمس التي تجرى مجرى الأب الفاعل، والأرض التي تجري مجرى الأم القابلة، وهي الصاحبة للشمس، وكذلك الصوت لا يتولد إلا عن جسمين يقرع أحدهما الآخر أو يقلع عنه .

النقد الفلسفي لنظرية الفيض :

تعرضت هذه الفلسفة لنقد شديد من بعض الفلاسفة القدماء والمعاصرين، وإذا لم نلتمس الطريق لنقدها وفق المعلومات المعاصرة التي تدحضها، فإننا نفضل الاستناد إلى رأي أحد الفلاسفة القدماء ـ وهو أبو البركات (متوفى ٥٤٧هـ)، فقد أخذ على عاتقه نقد الفلسفة المشائية مبيناً ضعف حججها لا سيما نظرية الصدور .

وهو بناء على دراسة أستاذنا الدكتور محمد علي أبو ريان ـ أن المشائين عامة ـ وابن سينا منهم ـ يضعون مبادئ مذهبهم وضعاً دون إيراد براهين وحجج مقنعة، ومع هذا فهم يطلبون من الغير التسليم بآرائهم مقدماً كأنها وحي من الله تعالى .

يقول أبو البركات (فهذه حكمة أوردوها كالخبر، ونصوا فيها نصاً كالوحي الذي لا يعترض ولا يعتبر، وليتهم قالوا يمكن هذا وغيره ولم يقولوا بوجوده، وإن كان

جاءهم عن وحي فكان يليق أن يذكروا ذلك فيما ذكروا حتى يرجع عنهم المعترضون والمتتبعون) .

أولاً: المبدأ في ذاته صحيح ولكن نتائجه غير صحيحة، إذ تصوروا أن الأول يصدر عنه العقل الأول، ويجعلون من هذا العقل مصدراً لثلاث صدور فهم بهذا يتناقضون مع المبدأ الذي وضعوه؟. إن المبدأ الصحيح أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام أولاً، وخلق منه ولأجله حواء ومنها ولأجلهما ولداً، إذن لا يصدق هذا المبدأ إلا مرة واحدة في بدء الخليقة .

وخطأ ابن سينا وأتباعه أنهم يعممون هذا المبدأ فيحددون القدرة الإلهية بهذا الفعل الوحيد، ويجعلون فعل الخلق لاحقاً على الواحد ثم يلحقون هذا الفعل بموجودات أقل من الرتبة من الواحد، بينما العقل الصريح يجزم بأن الله تعالى خلاق دائماً .

ولتبسيط الفكرة يقول أبو البركات (فالشخص منا يتخذ لنفسه بيتاً وزينة ويقتني فرساً ويشتري له مركباً وزينة، وهذه الأشياء للفرس والزينة للبيت ولكنها في النهاية للشخص الذي يملكها . . فهكذا - ولله المثل الأعلى - يكون من أفعال الله تعالى القديم الذي هو أول الخلق ومنها الحديث المحدث في الجزئيات المتجددة، مثل إنزال الغيث وتحريك الرياح - فيكون الله تعالى - بحسب ما وجب من مبدأيته الأولى وقدرته وحكمته - أراد الخلق بأسره على طريق الجملة لإيجاد كل ممكن الوجود، ثم على طريق التفصيل لإخراج كل ممكن في التصور والتقدير إلى الفعل بحسبه في تقديره وتوقيته أزلياً وزمنياً : الزمني لأجل الزمني والمتأخر لأجل المقدم ، المقدم لأجل المتأخر، والشخص لأجل النوع من جهة دوام البقاء والنوع لأجل الشخص من جهة الحصول في الوجود، فتصدر من الموجودات أشياء يكون الله تعالى فاعلها بذاته ويكون صدورها عنه ومعه بذاته وبفعل أشياء[1] .

---

(١) د. أبوريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ص٤١٢ دار الجامعات المصرية بالإسكندرية ١٩٧٣م

ثانياً: يرى صاحب (المعتبر) أن وجهة النظر المشائية تتضمن حداً للقدرة الإلهية لافتراضها أن عملية الخلق تتخذ اتجاهاً واحداً فقط هو الاتجاه الطولي فإن « أ » ستصبح علة « ب » و« ب » علة « ج » و« ج » علة « د » وهكذا إلى أن نصل إلى المعلوم الأخير .

أي لا يوجد في الوجود موجودان معاً إلا واحدهما علة للآخر أو معلولة، ونحن نرى في الوجود أشخاصاً لا يتناهى عددها ليس بعضها علة لبعض ولا معلولاً له كالإنسان والفرس، وإنسان من سائر أشخاص الناس وفرس من سائر أشخاص الفرسان، ولا يلزم أن يكون احد هذه علة للآخر ولا الآخر معلوله، فليس كل ماهو علة لشيء ما، هو معلول له .

فلو سلمنا بفلسفة المشائين في الصدور فلن يصدر عن الواحد إلا واحد، وستستمر سلسلة الصدروات في اتجاه طولي واحد، فلن يكون هناك كثرة موجودات على مستويات واحدة أي لن توجد مثلاً أنواع تتالف من أفراد أو موجودات متماثلة.

قيد المشاؤون القدرة الإلهية إذن، وعالج أبو البركات هذه الصعوبة الناجمة عن فلسفة ابن سينا وأتباعه بالقول بالحرية المطلقة لله تعالى في الخلق، وبذلك رفض تلك الحتمية المسيطرة التي يخضع لها فعل الخلق عند المشائين، فالله يخلق في كل لحظة كثرة من الأشياء بطريق مباشر وغير مباشر - ويضرب أبو البركات مثلاً بالشمس فهي حينما تنعكس على جدار فتضيئه ، وينعكس شعاع من الجدار المضيء على جدار آخر فيضيئه، وهكذا إلى داخل الكهوف، فإن ذلك الضوء بأسره صدر عن الشمس أصلاً، فلا يصح أن يقال أن الشعاع صدر عن الحائط المضيء فهو أصلاً من الشمس وانعكس على حائط آخر .

ويثبت هذا الفيلسوف أن الله تعالى يخلق باستمرار دون توقف في اتجاهات وأبعاد متعددة لا تقتصر فقط على البعد الطولي التنازلي - كالشمس - ولله تعالى المثل الأعلى ترسل أشعتها في جميع الاتجاهات، وهذا الخلق ليس صدوراً ضرورياً ، بل هو فعل إرادة صادرة عن إرادة مطلقة تامة لها معرفة بما تفعل، وجميع المخلوقات وترجع

إلى الله تعالى بالذات وترجع إلى ما تتعلق به بالعرض[1] .

ومن أفضل صور النقد الفلسفي لنظرية الفيض حديثاً تلك التي قام بها الأستاذ الدكتور أحمد صبحي أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الإسكندرية ويتلخص نقده فيما يلي :

١- أن نظرية الفيض ترجع إلى أفلوطين وهي تعبير عن حضارة في طور « الاحتضار » سواء من الناحية التاريخية (بالنسبة للفلسفة اليونانية) أو الفكرية .. وأما إضفاء الحياة والعقل على الكواكب فهي رواسب من المذهب الحيوي « إضفاء الحياة على الجمادات معتقد البدائيين » في مذهب الصائبة تحت معتقد : كل ما هو سماوي فهو إلهي ، ومن ثم كانت عبادة الكواكب، وتعدل لدى بعض فلاسفة اليونان تحت مبدأ : كل ما هو سماوي فهو روحاني .

٢- نأتي إلى الحضارة التي اقتحمت عليه (أي حضارة الإسلام)، لم تبلغ البشرية في مسارها بصدد الألوهية من النضج كما بلغته في عقيدة الإسلام، لأن النضج في التطور الفكري للبشرية كما هو التطور الفكري للإنسان : من المحسوس إلى المجرد، وقد بلغ تصور الألوهية أقصى درجات التجريد والتنزيه في الإسلام، وما استتبع ذلك من تصورات الخلق والعناية الإلهية [2] .

ونختم البحث بما رآه الشيخ بأن السعادة لا تتحقق للنفس باتباع الفلاسفة لأنها في ظنهم تتم بالمعرفة فحسب، بينما تتحقق السعادة بضم العلم مع العمل - وهي في إطار عقائد الإسلام وعباداته، تجمع بين معرفة الله تعالى ومحبته وعبادته .

---

(١) د. أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ص٤١٢ دار الجامعات المصرية بالإسكندرية ١٩٧٣م .

(٢) مقال بعنوان (اتجاهات الفلسفة الإسلامية في العالم العربي ١٩٦٠-١٩٨٠) ص٤٦ من كتاب « المشكاة » مجموعة مقالات في الفلسفة والعلوم الإنسانية مهداة إلى اسم المرحوم الدكتور علي سامي النشار ط دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٨٥م .

النفس وسعادتها بين الفلسفة والشرع :

إن اعتقاد أن النفس تكمل بمجرد العلم كما زعم الفلاسفة ، اعتقاد باطل لأن النفس لها قوتان : قوة علمية نظرية ، وقوة إرادية عملية، فلابد لها من كمال القوتين: بمعرفة الله تعالى وعبادته ، وعبادته تجمع محبته والذل له، فلا تكمل نفس قط إلا بعبادة الله وحده لا شريك له ، والعبادة تجمع معرفته ومحبته والعبودية له، وبهذا بعث الله الرسل وأنزل الكتب الإلهية كلها تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له [1] .

وموطن زلل الفلاسفة أنهم جعلوا العبادات التي أمرت بها الرسل مقصودها إصلاح المنزل والمدينة ، وهو (الحكمة العملية) فيجعلون العبادات وسائل محضة إلى ما يدعونه من العلم. ولهذا يرون ذلك ساقطاً عمن حصل المقصود، وهذا هو الكفر بعينه

إن إصلاح الإنسان في الواقع لا يتحقق بمجرد العلم بالحق دون أن يحبه ويريده ويتبعه، كما أن سعادته لا تنتج عن علمه بالله تعالى علماً نظرياً ، إذ لابد أن يتبعه بالأعمال العبادية طاعة الله تعالى خوفاً منه ورجاء في رحمته وفضله ، والعبادة في حقيقة أمرها تجمع بين كمال الحب لله عز وجل وكمال الذل لله .

وقد تعددت الآيات والأحاديث التي تتناول محبة الله تعالى والرسول (ﷺ) مثل قوله تعالى ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ وقوله ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وقوله سبحانه ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ وقوله ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ وغيرها من الآيات الدالة على محبة الرب عز وجل لعبده ، كذلك الحض على الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات [2] .

كذلك ما ورد في الصحيحين (والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتي أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) وغيره من الأحاديث التي تحض على محبة صحابته وقرابته [3] .

---

(١) نفسه ص١٤٥ . (٢) ابن تيمية : التحفة العراقية ص٤٩

(٣) نفسه ٤٨ .

ويرى ابن تيمية أن المحبة هي أصل كل عمل ديني ، ويؤسس على هذه القاعدة ما يراه من اندماج باعثي الخوف والرجاء، ودليله على ذلك أن الراجي يسعى إلى نيل ما يحبه، والخائف يفر من سبب الخوف لكي يحصل هو أيضاً على ما يحبه قال تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء الآية :٥٧] .

أما تحقق المحبة بمعناه الصحيح فينبغي أن تكون خالصة لله تعالى، وبغير ذلك تصبح محبة الأشخاص تبعاً للهوى وبغرض تحقيق مآرب خاصة أو ما شابه ذلك.

وإذا كانت عبادة الله تعالى تجمع كمال الحب له، وكمال الذل له[1]، فإن هذا الذل يصبح بمثابة الخضوع لله والاستسلام له وحده يمنح القلب - في نفس الوقت - الحرية في مواجهة غير الله تعالى .

وهنا تنبثق السعادة حيث تتحقق في أعلى مراتبها إذ ما التقت العلتان اللتان تحركان القلب : إحداهما علة غائية وهي عبادة الله ، والثانية علة فاعلية وهي تتحقق بالاستعانة والتوكل، ثم نقرأ للشيخ عبارته الجامعة الأخّاذة التي يقول فيها (فالقلب لا يصلح ، ولا يفلح ، ولا يلتذ ، ولا يسير ولا يطيب ، ولا يسكن ، ولا يطمئن ، إلا بعبادة ربه ، وحبه عز وجل ، والإنابة إليه) .

---

(١) السلوك ص١٩٤ وينظر كتابنا « ابن تيمية والتصوف » ط دار الدعوة الإسلامية .

(٤) مقدمة في أصول الدين
(علم الكلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين ؛ وبعد :

فقبل التعريف بعلم الكلام وموضوعه وقضاياه، فإن المبادئ الأولية التي ينبغي معرفتها هي اتصاله الوثيق بالعقائد الإسلامية لأنه في رأي المتكلمين منهج الدفاع عنها في مواجهة المبتدعة ، إذ عرّفه ابن خلدون بأنه «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة»[1] .

ويتضمن هذا التعريف أربع مسائل :

١ـ إن وظيفة الدفاع عن العقائد الإيمانية، لا المذاهب الفقهية .

٢ـ يستخدم العقل منهجاً للدفاع .

٣ـ يرد على المبتدعة في الاعتقادات .

٤ـ مخالفة هؤلاء المبتدعة لمذاهب السلف وأهل السنة .

وتعدت أسماء علم الكلام ، إذ أطلق عليه اسم (التوحيد) لأن من مسائله توحيد الله عز وجل ، وسمى بـ(أصول الدين) للتمييز بينه وبين الفقه الذي يبحث في الفروع ـ كالطهارة والصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها من شئون العبادات والمعاملات، ولذلك سمى الإمام أبو حنيفة كتابه في العقيدة (الفقه الأكبر) .

ويميّز الإمام الشاطبي بين أصول الفقه وأصول الدين فإن الأول معناه استقراء كليات الأدلة حتى تكون عند المجتهد نصب عين وعند الطالب سهلة الملتمس، «وكذلك أصول الدين، وهو علم الكلام، إنما حاصلة تقرير لأدلة القرآن والسنّة أو ما ينشأ عنها التوحيد وما يتعلق به، كما كان الفقه تقريراً لأدلتها في الفروع العبادية»[2] .

١ـ مقدمة ابن خلدون ص٣٨٢ ط دار الفكر ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

٢ـ الاعتصام للشاطبي جـ١ ص ٣٨ تحقيق السيد محمد رشيد رضا ط دار المعرفة بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

كذلك اختلف العلماء في تعليل أسمائه المختلفة « فقال بعضهم إنه سمى علم الكلام ، لأن أهم مسألة وقع فيها الخلاف في العصور الأولى مسألة كلام الله عز وجل وخلق القرآن، فسمي العلم كله باهم مسألة فيه، أو لأن مبناه كلام صرف في المناظرات على العقائد، وليس يرجع إلى عمل ، أو لأنهم تكلموا حيث كان السلف يسكت عما تكلموا فيه، أو لأن في طرق استدلاله على أصول الدين أشبه بالمنطق في تنبيه مسالك الحجة في الفلسفة، فوضع للأول اسم مرادف للثاني، فسمي كلاماً مقابلة لكلمة « منطق » ويقول الشهرستاني « ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين فسّرت أيام المأمون، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وافردتها فناً من فنون العلم وسمتها باسم الكلام »[1] .

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن حاجة المتكلمين إلى الفلسفة لوقوفهم أمام خصومهم يجادلونهم بمثل حججهم ، اضطرهم إلى أن يقرؤا الفلسفة اليونانية وينتفعوا بالمنطق واللاهوت اليونانيين ، فنرى « النظام » يقرأ أرسطو ويرد عليه، وأبا الهذيل العلاف كذلك ونرى كثيراً من المعتزلة[2] يتكلمون في الطفرة والتوالد والجوهر والعرض والجوهر الفرد، ونحو ذلك من المسائل التي تعد من صميم الفلسفة اليونانية وتدخل في بحوث المتكلمين .

وقد مرَّ بنا أن المعتزلة خلطت مناهج الفلسفة بمناهج الكلام، وجعلته فناً قائماً بنفسه و لذلك فقد انقسم الرأي حول مدى اعتباره علماً اسلامياً وأنه وليد الفلسفة اليونانية .

فمن قال إنه علم إسلامي بحت لم يتأثر باي أثر بفلسفة اليونان وسائر الأديان فقد أخطأ، واستعراض بسيط لموضوعات هذا العلم يكفي للرد عليه ومن قال إنه وليد الفلسفة وحدها فقد أخطأ كذلك، لأن الإسلام هو أساسه، وهو محوره الذي يدور

---

(١) ضحى الإسلام جـ٣ ص١٠ لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٣٣٥هـ١٩٣٦/م .

(٢) ينظر كتابنا (قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي) من ص١٢٨ وحتى ص١٥٠ وفيه عرض لنشأة المعتزلة وأصولها الخمسة مع تفنيدها والرد عليها .

عليه ، وكان استشهادهم بآيات القرآن والتعويل عليها فوق استشهادهم بالفلسفة اليونانية والتعويل عليها . فالحق أنه مزيج منهما، شخصية المسلمين فيه أقوى من شخصيتهم في دراسة الفلسفة[1] .

ونلاحظ أن اغلب الباحثين وجهوا عنايتهم إلى علم الكلام بالمنهج التقليدي عند علماء الكلام البادئ بالتعريف بالعلم وسبب نشأته ووظيفته في الدفاع عن العقائد الإيمانيةبالأدلة العقلية ، بينما هناك منهج آخر يعبر عنه علماء المسلمين السالكين مسلك السلف، أمثال أئمة الفقه الأربعة والبخارى والدارمي وابن قتيبة والآجرى وابن تيمية وابن القيم والشاطبى وابن الوزير اليمانى ، وغيرهم .

وتنحصر ملامح منهجهم في معارضة المتكلمين ، ووضع البديل باستخلاص الأدلة العقلية من الكتاب والسنة، باعتبار أن أدلة الشرع هي أدلة عقلية أيضاً .

والواقع أن مجال البحث في علم الكلام عند المحدّثين وعلماء السنة مازال مجالاً بكراً يحتاج إلى المزيد من العناية ، وهو ما سنفعله في هذه المقدمة .

لذلك فإنها تحتوي على مبحثين :

الأول -علم الكلام عند المتكلمين. **الثاني** -علم الكلام عند علماء الحديث والسنة.

(١) نفسه ص٩ .

المبحث الأول: علم الكلام عند المتكلمين

خصائص المنهج الكلامي

قارن الأستاذ أحمد أمين بين مناهج **المتكلمين** من جانب وبين منهج **القرآن الكريم**، والحديث وأقوال الصحابة ، من جانب آخر، مقرراً أنه **يخالف هذا وذاك** ، شارحاً ذلك بقوله :

فأما مخالفتهم لمنهج القرآن، فذلك أن القرآن اعتمد في الدعوة على أساس **فطري**، فيكاد يكون كل إنسان مفطوراً على الاعتقاد بوجود إله خلق العالم ودبره، ويكاد الناس بفطرتهم يجمعون على ذلك مهما اختلفت أسماء الله عندهم واختلفت صفاته، يستوي في ذلك الممعن في البداوة، والمغرق في الحضارة، وهذا ما يعجب له الباحث الاجتماعي، إذ يرى إجماع القبائل - حتى التي لم تتصل بغيرها أي اتصال، التي تعرف من العالم إلا رقعتها من الأرض وغطاءها من السماء - على إله خالق، إن اختلفوا فيه فخلاف في الأسماء أو الاختصاص، **فالقرآن اعتمد على هذه الفطرة**، وخاطب الناس بما **يحيي هذه العاطفة وينميها ويقويها، ويصلح ما اعتورها من فساد بالاشتراك وما إليه**، وأدار الدعوة على هذا الأساس، فالله تعالى خلق الإنسان وعني به وأحاطه ببيئته، ينتفع بها في تسيير شؤونه من أرض وسماء، وليل ونهار، وماء وهواء، وشمس وقمر، وحيوان نبات، وهو الذي خلق الإنسان ، وخلق هذه الأشياء كلها، مما ندرك وما لا ندرك، وما نعلم وما لا نعلم ، وهو واهب الوجود لها كلها، وواهب الحياة لما حي منها، وواضع نظامها الذي لا تحيد عنه ، وغيره لا يستطيع أن يخلق ولو ذباباً ﴿ ... إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج الآية :٧٣-٧٤] ثم غذّى هذه العاطفة الفطرية بطلب النظر في كل ما حولنا فذلك يسلم إلى قوة في دين، وإيمان في يقين ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس الآيات من ٢٤ - ٣١] ، ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝

خُلِقَ من مَّاءٍ دافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾[الطارق الآيات من٥-٧] ، ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغاشية الآيات من ١٧-٢٠]، ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾[يس الآية :٣٣] ، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[الفرقان الآية ٦١]، ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[آل عمران الآية : ١٩١] .

وسلك في الدعوة إلى التوحيد هذا المسلك، فاستدل على ذلك بالمألوف من تنازع ذي السلطة، وما يؤدي إليه النزاع من فساد ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء الآية: ٢٢] ، ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون الآية :٩١] ، كما استدل على ذلك بوحدة النظام ووحدة الحق، وخضوع المخلوقات جميعاً لنظام واحد ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[الإسراء الآية :٤٤] وهكذا سار أسلوب القرآن على هذا المنهج في إثبات قدرته وعلمه وهذا الأسلوب - كما ذكرنا - يساير الفطرة ويغذّيها، ويشعر كل إنسان في أعماق نفسه بالاستجابة له والإصغاء إليه، حتى الملحد بعقله، وهو منهج يوافق العامة، وهم السواد الأعظم في كل أمة وكل جيل، كما يناسب الخاصة. وهم الأقلّون دائماً .

فنظرة العامي إلى قول تعالى ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ تثير إيماناً ساذجاً بعجيب القدرة، كما أن نظرة (البيولوجي) عالم الحياة إلى منشإ الإنسان وخلقه تثير عجبه وإعجابه وحيرته دائماً وإيمانه العميق إلا قليلاً، ونظرة العامي إلى السماء وتلألؤ نجومها، وسطوع شموسها وأقمارها، تبعث عنده الإيمان بمدبر هذا الكون وعظمته ، والفلكي بمعرفته الواسعة لحركات النجوم وسيرها ونظامها وخلقها

وأبعادها أقدر على معرفة العظمة ، وأشد إعجاباً بخالقها ومدبرها، وهكذا الشأن في العامي والفسيولوجي، والعامي والسيكولوجي، والعامي والفلسفي، كلهم صالح لأن يتأثر بهذا المنهج على اختلاف في استعدادهم ومداركهم، وحياة عواطفهم وحياة عقولهم[1] .

بعد هذا التحليل العميق الذي قدمه الأستاذ أحمد أمين يستطرد مقارناً بين طريقة القرآن الكريم وطريقة المتكلمين وشيوخهم فيذكر أن « طريقة المتكلمين وشيوخهم تغاير هذين الأصلين، فهم آمنوا بالله وما جاء به رسوله ﷺ » ثم أرادوا أن يبرهنوا على ذلك بالأدلة العقلية المنطقية، فنقلوا الوضع من فطرة وعاطفة ومخاطب لهما بالنظر في آيات الله إلى دائرة العقل والنظر، ومن فن جميل إلى علم ومنطق، ومن قلب إلى رأس، فبدلاً من أسلوب القرآن في نحو قوله ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[إبراهيم الآية : ١٠] وضعوا طريقتهم في حدوث العالم، واضطر بعضهم ذلك إلى القول بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ، وإقامة الدليل على عدم حدوثها بنفسها إلى أن يصلوا إلى إثبات الله .. وهكذا سلكوا هذا السبيل في إثبات وحدانيته وسائر صفاته تعالى، وكانت كل خطوة من هذه الخطوات تثير أسئلة وجدلاً ، وتفتح موضوعات جديدة ، فساروا فيها إلى نهايتها »[2] .

التأويل :

ومن خصائص المنهج الكلامي أيضاً: التأويل، ذلك لأن المتكلمين لم يقنعوا - كما قنع غيرهم - بالإيمان بالمتشابهات جملة من غير تفصيل، بل جرؤا على ما لم يجرؤ عليه غيرهم، فأداهم النظر في كل مسألة إلى رأي، فإذا أداهم البحث إلى أن الإنسان مختار أولوا الآيات التي توهموا أنها تفيد الجبر، وأولوا الاستواء على العرش، وهكذا

---

(١) ضحى الإسلام ١٥ .

(٢) نفسه ص١٥ ويقصد بالأصلين أ - اعتماد القرآن في الدعوة على أساس فطري .
ب - ثم غذى هذه الفطرة بطلب النظر في كل ما حولنا .
(أي جعلوا المذهب - أو الرأي - أصلاً والنص ثابتاً) .

فعلوا في مسائل أخرى، فالتأويل عنصر من أهم عناصرهم، وأكبر مميز لهم عن السلف «وهذان الأمران : أعني الاعتماد في البراهين على العقليات[1] والتأويل هما اللذان يعللان ما استفاض في عصور المتكلمين من خلاف ومن أقوال لا عداد لها، ومن براهين لا حصر لها، مما لم يكن معروفاً في عهد النبي «ﷺ»، ولا الصدر الأول»[1]. كما خالفوا السلف أيضاً لجعلهم النظر هو أول واجبات الإيمان، بينما يستدل ابن جمرة الأندلسي على موقف السلف بقوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ [العلق الآيات من١-٣] لمن ذهب من العلماء إلى أن أول الواجبات الإيمان دون النظر والاستدلال شرط كمال لا شرط صحة، لأن قوله﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ تمت به الفائدة وحصل به الإيمان المجزي، وقوله بعد ذلك ﴿ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ هو طلب النظر والاستدلال، وهو زيادة كمال الإيمان، لأن الأنبياء عليهم السلام أكمل الناس إيماناً، ولم يفرض الله عز وجل على الناس على أيديهم إلا الإيمان المجزي، وبقى الكمال يهبه لمن يشاء من أتباعهم»[2] .

لهذا لا نعجب - بعد هذا التحليل الدقيق لعناصر منهج المتكلمين - إذا عارضه السلف وعلماء السنة واستبدلوا به منهجاً آخر مصدره الشرع، مع إعمال العقل في تفسيره وفهمه وشرحه .

---

(١) ضحى الإسلام ص١٥

أما معنى التأويل في قوله تعالى ﴿ ... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ... ﴾ [آل عمران الآية :٧] فيرى ابن تيمية أنه يُراد به : حقيقة الشيء كالكيفية التي لا يعلمها إلا الله ، كما قال مالك (الاستواء معلوم، والكيف مجهول) .

ويراد به التفسير، هو كقوله (الاستواء معلوم فإن تفسيره ومعناه معلوم)

ويراد به تحريف الكلم عن موضعه، كتاويلات الجهمية، مثل تاويل من تاول الاستواء بمعنى استولى - وهذا الذي اتفق السلف والأئمة على بطلانه وذم أصحابه .

(درء تعارض العقل والنقل جـ٧ ص٣٢٨ - تحقيق د. محمد رشاد سالم . ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) .

(٢) ص١٣ جـ١ بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة ما لها وما عليها - شرح مختصر صحيح البخاري المسمى (جمع النهاية في بدء الخير والنهاية) لأبي محمد عبدالله بن أبي جمرة الأندلسي المتوفى ٦٩٩هـ ط دار الجميل بيروت دون تاريخ .

أسباب نقد علم الكلام :

بناءً على ما تقدم من بيان مخالفة طريقة المتكلمين لطريقة القرآن الكريم، اتفق علماء الحديث والسنة على أن منهج علم الكلام الذي أنشأه المعتزلة وفصَّلوا فيه المسائل وأغرقوه بالجدل، خالفوا به طريقة الأوائل في معرفة العقائد وأساليب الحجاج في مواجهة المخالفين، وغلبوا الجدل على الاستنباط من النصوص وتجلية معانيها .

أما تعليل قلة كلام المسلمين الأوائل، فلم يكن عن حصر وعي، بل عن ورع وخشية لله عز وجل ، ولو أرادوا الكلام وإطالته لما عجزوا عن ذلك، بل كان الجدل عندهم من الأمور المنهي عنها لما ورد في الحديث المرفوع في السنن [ما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل] ، ثم قرأ ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾، فكان عمر بن عبدالعزيز يصف المسلمين الأوائل بأنهم « عن علم وقفوا، وببصر نافذ قد كفوا، وكانوا هم أقوى على البحث لو بحثوا »[١] .

ويُحذِّر ابن رجب من الدخول في كلام المتكلمين أو الفلاسفة أو العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك بمجرد الرأي والذوق أو الكشف (كما يفعل الصوفية) ثم يضع معالم المنهج المؤسس على نصوص الكتاب والسنة، لأن العلم النافع من هذه العلوم كلها ضبطها بالنصوص وفهم معانيها مع التقيّد بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وسواء في ذلك كلامهم في أصول الدين وفروعه، وفي تفسير القرآن والحديث، وفي الزهد والرقائق، والحكم والمواعظ وغير ذلك مما تكلموا فيه، فمن سلك سبيلهم فقد اهتدى ومن سلك غير سبيلهم ودخل في كثرة السؤال والبحث والجدال والقيل والقال، فإن اعترف لهم بالفضل وعلى نفسه بالنقص كان حاله قريباً ، وإن ادعى لنفسه الفضل ولمن سبقه النقص والجهل فقد ضل ضلالاً مبينا وخسر خسراناً عظيما [٢] .

---

(١) ص١٥،٢٥ من كتاب (فضل علم السلف علي الخلف لابن رجب ، تصحيح وتعليق محمد منير الدمشقي / دار الفاروق بدون تاريخ وينظر ايضاً كتابنا (قواعد المنهج السلفي ص٨١،٨٦) والحديث اعلاه رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما ، وقال الترمذي حديث حسن صحيح (الكبائر للذهبي ص٣٤ تحقيق د. أسامة عبدالعظيم حمزة دار الفتح ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

(٢) نفسه ص٥٠ .

ويلفتنا ابن رجب إلى طرق المعادين للإسلام - المخالفين لشريعته على مدى تاريخه كله، فيصفهم بقسوة القلب ، ويصور أساليبهم إجمالاً في طريقتين :

الأولى : التحريف :، فإن من تفقه لغير العمل - أي لمجرد الجدل والتفلسف والتشدق بالألفاظ - يقسو قلبه، فلا يشتغل بالعمل بل كل همه تحريف الكلم وصرف ألفاظ الكتاب والسُّنة عن مواضعها، والتلطف في ذلك بأنواع الحيل اللطيفة من حملها على مجازات اللغة المستبعدة، ونحو ذلك .

الثاني : الطعن في ألفاظ السنن : « حيث لم يمكنهم الطعن في ألفاظ الكتاب ، ويذمون من تمسك بالنصوص وأجراها على ما يفهم منها ، ويسمونه جاهلاً أو حسوداً »[1] .

ويضيف ابن أبي جمرة الأندلسي (المتوفى ٦٩٩هـ) إلى ذلك أن من يعتقد من المتكلمين أن ما يقرؤونه من علم الكلام « من واجبات الدين أو كمالة أو مندوباته فإنهم عارضوا ذلك قوله عز وجل ﴿ ..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .. ﴾ [المائدة الآية :٣]، وهم لا يخلوا أن يقولوا بكمال الدين في ذلك الوقت أم لا، فإن قالوا بكمال الدين في ذلك الوقت فهذا العلم لم يكن في ذلك الوقت ولا تكلموا فيه ، فالكلام فيه بعد ذلك نقص في الدين إذ إنه لا يكون بعد الكمال إلا النقص ، وقد قال « ﷺ » (ما كان قوم على هُدىً فضلّوا إلا ابتلاهم الله بعلم الجدل)،ثم تلى عليه السلام قوله عز وجل ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[الزخرف الآية :٥٨]، وإن هم لم يقولوا بكمال الدين إذ ذاك فقد كذّبوا بالتنزيل وهي الآية المذكورة، وقد كذّبوا السُّنة أيضاً وأبطلوها، ويقصد بذلك مثل قوله عليه الصلاة والسلام عليكم بسنتي وسنة الخلفاء بعدي)، (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) .

ويستطرد قائلاً « ومجموع هؤلاء لم يتكلموا في هذا العلم شيئاً فكيف رجع الفاضل مفضولاً والمفضول فاضلاً ؟ »[2]

---

(١) نفسه ص ٥٤ .

(٢) ص٤١ / ٤٢ من كتاب بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها - شرح مختصر صحيح البخاري - ط دار الجيل - بيروت ، دون تاريخ .

المبحث الثاني

علم الكلام (أصول الدين) لدى علماء الحديث والسنة

مر بنا الحديث عن علم الكلام عند المعتزلة، فإنه يُنسب إليهم في نشأته ومنهجه، وقد عارضه الفقهاء والمحدثون - لا لانه يعتمد على الاستدلالات العقلية - ولكن لأن منهجه اختلط بالفلسفة اليونانية ومصطلحاتها وهي تعبر عن تصورات فلاسفة الوثنيين ومن ثم فإن التوفيق بينها وبين عقيدة التوحيد هي محاولة الجمع بين متضادين .

يقول ابن سلوم « فعلم الكلام الذي نهى عنه أئمة الإسلام ، هو العلم المشحون بالفلسفة والتأويل ، والإلحاد والأباطيل ، وصرف الآيات القرآنية عن معانيها الظاهرة، والأخبار النبوية عن حقائقها الباهرة، دون علم السلف، ومذهب الأثر، وما جاء في الذكر الحكيم ، وصحيح الخبر فهذا لعمري ترياق القلوب »[1] .

ويضيف إلى ذلك إن أئمة الدين، مثل مالك، وسفيان وابن المبارك، وأبي يوسف، والشافعي، وأحمد وإسحاق، والفضيل بن عياض، وبشر الحافي، يبالغون في ذم الكلام ، وفي ذم بشر المريسي « وكان من كبار المعتزلة »[2] .

فإن قلت إذا كان علم الكلام بالمثابة التي ذكرت ، والمكانة التي عنها برهنت، فكيف ساغ للأئمة الخوض فيه والتنقيب عما يحتويه ؟

وهذا يسلّمنا إلى شرح موقف علماء الحديث والسنة الذين اضطروا للخوض في علم الكلام حسب التعريف الذي شرحه ابن سلوم :

والتعريف التفصيلي لعلم الكلام - أو أصول الدين - عند علماء السنة والحديث - كما يحدده ابن سلوم كالآتي :

(١) مختصر لوامع الأنوار البهية وسواطع الاسرار الأثرية لابن سلوم ص٩٠ تحقيق محمد زهري النجار ط دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) نفسه ص ٨٨ .

(فحد هذا العلم - المسمى بأصول الدين ، وبعلم العقائد ، وبعلم التوحيد ، وبعلم الكلام - العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية ، أو العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية ، المكتسبة من أدلتها اليقينية .

والمراد بالعقائد الدينية ، المنسوبة إلى دين نبينا محمد « ﷺ » .

وموضوع هذا العلم : البحث في أحوال الصانع سبحانه، من القِدم والوحدة، والقدرة والإرادة ، وغيرها من صفاته وأفعاله الاختيارية . . .

الغاية : وغايته بأن يصير الإيمان والتصديق بالأحكام الشرعية، متقنا محكماً، لا تزلزله شبه المبطلين، فيرتقي من حضيض التقليد، إلى ذروة الإيقان، وإلزام المعاندين بإقامة الحجج والبراهين، وصحة النية والاعتقادات الإسلامية، التي يقع بها العمل في حين القبول .

الثمرة : وثمرة جميع ذلك ، الفوز بسعادة الدارين .

ففي الدنيا نظام أمر المعاش، بالمحافظة على العدل والمعاملة ، التي يحتاج إليها في إبقاء النوع الإنساني على وجه لا يؤدي إلى الفساد .

وفي الآخرة ، النجاة ، من العذاب ، المرتب على الكفر وسوء الاعتقاد .

المنهج : تقريب المسافة واستمداده - أي منهجه - من الكتاب والسنة، والإجماع ، والنظر الصحيح.

غير أنه ينبغي التمييز بين علم الكلام كمصدر للعقائد ، وبينه كمنهج لدفع شبه الخصوم، فإن أهل السُّنة أخذوا الاعتقادات من النصوص والأخبار الصحيحة، وما درج عليه سلف الأمة ونهج إليه أعلام الأئمة من الرعيل الأول .

وبعد استبعاده كمصدر للمعتقدات، اعتمدوه فقط كمنهج، له دور محدد ينحصر في دفع شبه الخصوم ودحض نهج أهل البدع والضلال، فإنهم طعنوا في بعض منها، بأنه غير معقول، فبيَّن علماء السنة بأن زعمهم على غاية من الغلط والذهول، فإن الأنبياء تأتي بمحارات العقول - أي التي تحيِّرها - لا بمحالاتها - أي المستحيلة . ثم

بيّن لهم علماء السنة ـ بالقواعد الكلامية ـ معقولية ما أنكروا »[1] .

ففيما يتصل بمسائل الغيب كالكلام عن الميزان والصراط وعذاب القبر والميزان وأوصاف أهل الجَنَّة وأوصاف أهل النار، فلم ينكر أحد منهم ما جاء من ذلك بل أقروا وأذعنوا لكلام الله عز وجل وكلام رسوله « ﷺ » ولم يصادموه ولا عارضوه بأشكال، ولو كان شيء من ذلك لنقل إلينا كما نقل إلينا سائر سيرهم وما جرى بينهم من القضايا والمناظرات في الأحكام الشرعية، فلما لم ينقل إلينا شيء من ذلك دَّل على أنهم آمنوا به وأقروه، كما جاء من غير بحث عن الكيفيات لأمور الغيب .

ويذكر لنا الإمام الشاطبي في كتابه (الاعتصام) طرفاً من طريقة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إزاء هذه المسائل موضحاً على سبيل التفصيل الاتجاه الصحيح في تلقي الأخبار المنقولة عن الشارع :

أ ـ ففهموا وصف الصراط بانه كحد السيف لأن العادة قد تخرق ، حتى يمكن المشي والاستقرار.

ب ـ وفي مسألة الميزان فأثبتوا أن كيفيته تليق بالدار الآخرة، لان الاعمال ليست كالأجسام التي توزن في دارنا، ولم يأت في النقل ما يعين أنه كميزاننا من كل وجه .

جـ ـ مسألة عذاب القبر، فإن رد الروح إلى الميت وتعذيبه بغير أن يراه البشر أو يسمعونه أمر ثابت بالحديث ، والعقل يسلم بما نراه ، فالميت يعالج سكرات الموت ويخبر بآلام لا مزيد عليها ولا نرى عليه من ذلك أثراً، وكذلك أهل الأمراض المؤلمة .

د ـ ويلحق بها مسألة سؤال الملكين للميت وإقعاده في قبره، فإنه إنما يشكل إذا حكمنا المعتاد في حياتنا الدنيا ، ولكنه من قبيل خرق العوائد التي لا تحيط بمعرفتها العقول : كإنطاق الجوارح شاهدة على صاحبها يوم القيامة ، وقراءة الصحف لمن لم يقرأ قَطْ .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ٧ ص٣٢٧

[ولا ريب ان الرسل « صلوات الله عليهم » يخبرون الخلق بما تعجز عقولهم عن معرفته ولا يخبرونهم بما يعلمون امتناعه ، فهم يخبرونهم بمحارات العقول لا بمجالاتها . .] أي ما حارت العقول في فهمه .

هـ ـ رؤية الله عز وجل في الآخرة جائزة، إذ لا دليل في العقل يدل على أنه لا رؤية إلا على الوجه المعتاد عندنا .

وكذلك كلام الباري تعالى وباقي صفاته عز وجل ، « وإنما نفاها من نفاها للزوم التركيب عنده في ذات الباري تعالى ، وهذا قطع من العقل الذي ثبت قصور إدراكه في معرفة المخلوقات، فكيف بمعرفة صفات الخالق عز وجل ؟! ، فالصواب في حقه تعالى أن نثبت من الصفات ما أثبتها لنفسه، والإقرار مع ذلك بالوحدانية له على الإطلاق والعموم »[1] .

ويرى الإمام الشاطبي خطأ من ينكر تلك الحقائق الغيبية لظنه مخالفتها للعقول، لأنها في حقيقتها مخالفة لعاداتنا المألوفة في حياتنا الدنيا على ذلك أن الأنبياء والرسل لا يخالفون البديهيات العقلية (كعلمنا بوجودنا وبأن الاثنين أكثر من الواحد وبأن الضدين لا يمكن اجتماعهما) ولكن معجزاتهم قائمة على خرق العادات لإثبات صدق النبوة ، وكان المنكرون لمعجزات الأنبياء عليهم السلام لا يمتلكون الأدلة العقلية على إنكارهم لها بل لأن النبوات جاءت بخوارق العادات فأنكرها من « أصر على الأمور العادية واعتقادها سحراً أو غير ذلك ، كقلب العصا ثعباناً ، وفرق البحر ، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص »[2] .

ويزداد الأمر إيضاحاً عندما نعرف دور العقل في المعرفة والإدراك ، إذ يقسم الإمام الشاطبي المعلومات إلى ثلاثة أقسام :

١ـ ضروري أو بديهي : كالأمثلة المتقدمة ـ أي كعلم الإنسان بوجوده ، وعلمه بأن الإثنين أكثر من الواحد وأن الضدين لا يجتمعان .

٢ـ قسم لا يعلمه البتة إلا أن يعلم به أو يجعل له طريق إلى العلم به، وذلك كعلم المغيبات عنه، كانت من قبيل ما يعتاد علم العبد به أولاً، كعلمه بما تحت رجليه، إلا أن مغيبه عنه تحت الأرض بمقدار شبر، وعلمه بالبلد القاصي عنه الذي لم يتقدم له به

---

(١) الاعتصام جـ٢ ص٣٢٨ تحقيق رشيد رضا ـ دار المعرفة ببيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

(٢) نفسه ص٣٢٣ جـ٢

عهد، فضلاً عن علمه بما في السماوات وما في البحار وما في الجنة أو النار على التفصيل .

٣ـ قسم نظري يمكن العلم به ويمكن أن لا يعلم به ـ وهي النظريات ـ أي الممكنات التي بواسطة لا بأنفسها ، إلا أن يعلم بها إخباراً »[١] .

ويتبين من كل ذلك ـ كما يقرر الإمام الشاطبي ـ « أن الله تعالى جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه ، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاسْتَوَت مع البارىء تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون ومالايكون ، إذ لو كان كيف كان يكون؟ فمعلومات الله لا تتناهى، ومعلومات العبد متناهية ، والمتناهي لا يساوي مالا يتناهى »[٢] .

وهناك ضروب من الأمثلة الأخرى ندلل بها على أن الماديين المعاصرين أيضاً الذين يغفلون عن حقائق هذا العالم ـ فضلاً عن حقائق عالم الغيب ـ بسبب الخضوع للحس والمشاهدات المرئية وكأنها من المسلمات، فلا يتجاوزونها إلى ما وراءها، بينما اكتشف العلماء المتخصصون أن « ما نراه في هذه المجموعة الشمسية لا يزيد عن جناح بعوضة، بالنسبة إلى مملكة الكون اللانهائية، فهناك دائماً ما هو أكبر ، ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾، وأن كل ما نراه ثابتاً يتحرك، فالشمس والقمر والأرض كلها تتحرك بسرعة هائلة ، وهذا التصور للكون لا ينبع إعجازه من انطباقه على معلوماتنا عن الكون، اليوم. بل من كونه يحض الإنسان على رفض المسلمات، رفض الظواهر الحسية، الخروج عن إطار المعرفة المحددة ، رفض المحسوس الناقص، بحثاً عن العقلي (اللانهائي) أو الأقرب للكمال »[٣] .

وسنفصل بالصفحات القادمة خصائص منهج علماء الحديث والسنة ويتلخص إجمالاً فيما يلي :ـ

---

(١) نفسه ص٣١٨/٣١٩ . (٢) نفسه ص٣١٨ .

(٣) ص١٠١ من كتاب (خواطر مسلم ـ الجهاد ـ الاناجيل ـ الاقليات) محمد جلال كشك ط دار ثابت ١٤٠٥هـ١٩٨٥/م .

١ـ اتباع منهج الصحابة في معرفة العقائد .
٢ـ ترجيح أساليب القرآن على أساليب الفلسفة اليونانية .
٣ـ الأدلة الشرعية عقلية أيضاً .
٤ـ التقيد بالمفردات والاصطلاحات الشرعية .

١ـ اتباع منهج الصحابة في معرفة العقائد

يرى علماء الحديث والسنة أن أفضل منهج لمعرفة العقائد الإسلامية هو استقراء حياة المسلمين الأوائل من ـ الصحابة والتابعين ـ لأنهم يعبرون عن النماذج في الفهم والسلوك ، ولا يقصدون الرجوع تاريخياً إلى عصورهم للاقتداء بهم في طرق المعيشة التي كانوا عليها، بل يقصدون استحضار العقائد والقيم والمبادئ التي خلقت أشخاصهم خلقاً جديداً، « قال حذيفة بن اليمان ﷺ لرستم قائد الفرس عندما سأله: ما جاء بك ؟ فأجاب : إن الله عز وجل منَّ علينا بدينه، وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكرين »[1] .

وعرفوا رسالتهم ففتحوا العالم حينذاك ، وانتشروا في الأرض شرقاً وغرباً رافعين لواء التوحيد، فدانت لهم شعوب وبلدان كانت تابعة للروم والفرس ـ أي الدولتين الكبريين في ذلك العصر، ولم يسعوا للغزو والاستعباد، ولكن لإخراج الناس من عبودية غير الله عز وجل ، إلى عبادته وحده، وتحقيق العدل الذي أقيمت به السماوات والأرض، ولا عجب فقد رباهم الرسول « ﷺ » ، وكان كل صحابي كأنه أمة .

يُروى أنه لما أبطأ على عمر بن الخطاب ﷺ فتح مصر،كتب إلى (عمرو بن

(١) حياة الصحابة جـ٣ ص٦٩٨، محمد يوسف الكاندهلوي (١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م) تقديم الشيخ ابن الحسن الندوي دار المعارف

العاص) - ﷺ - :(أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنين وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما أعرف إلا أن يكون غيَّرهم ما غيَّر غيرهم »[1] .

والدارس لشخصيات الصحابة ﷺ يلاحظ صفة التكامل والوحدة في الشخصية - أعني العقيدية والاجتماعية والأخلاقية، إذ جمع بينهم وحدة المصدر التعليمي، ووحدة الأسوة في شخصية الرسول « ﷺ »، وكان يلفت أنظار أعدائهم انتصاراتهم المذهلة بالقياس إلى قلة عددهم وعُددهم .

وكان هرقل ملك الروم مذهولاً بسبب هزيمة الروم وأخذ يسأل متعجباً « ويلكم، أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى، قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن، قال : فما بالكم تنهزمون ؟ قال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام وننقض العهد ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عما يرضى الله ونفسد في الأرض ، فقال : أنت صدَقتني »[2] .

---

(١) نفسه ص ٦٩١ .   (٢) نفسه ص١٩١ .

* من آراء ابن تيمية في نظرية المعرفة ودرء تعارض العقل والنقل جـ٧ ص٣٢٥ .

وقد تنازع الناس في السمع والبصر وأيهما أكمل ؟

فذهبت طائفة منهم ابن قتيبة إلى أن السمع أكمل لعموم ما يُعلم به وشموله .

وذهب الجمهور إلى أن البصر أكمل ، فليس الخبر كالمعاين .

والتحقيق في هذاالباب أن العيان أتم وأكمل ، والسماع أعم وأشمل

والدارس لحياة الصحابة -رضي الله عنهم- يقف على ظاهرة أخرى لها صلة وثيقة بموضوع دراستنا - أي الحرص الشديد على طلب العلم والتعلم، فلم تشغلهم أسمى الغايات - وهو الجهاد - عن طلب العلم والحرص على متابعة كل جديد تعلمه أصحابهم الذين لم يشاركوهم في المعارك، «فعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال : كنا نغزوا وندع الرجل والرجلين لحديث رسول الله - ﷺ -، فنجيء من غزواتنا فيحدثونا بما حدّث به رسول الله -ﷺ- فنحدّث به نقول : قال رسول الله -ﷺ- »[1] .

إن الميزة الكبرى التي تُميِّزهم عن غيرهم في قضايا العقائد ومسائل أصول الدين أن الصحبة للرسول -ﷺ- مكنتهم من التعلم منه عليه الصلاة والسلام مباشرة، فقد شاهدوه وتتبعوا أعماله في دائرة الحياة الأسرية والاجتماعية والعسكرية والدولية وأحبوه لشمائله أكثر من حبهم لأنفسهم فسهُل عليهم الاقتداء به، فقد أخرج ابن سعد عن ابن شماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص -رضي الله عنه- وهو في سياق الموت فحوّل وجهه إلى الحائط يبكي طويلاً وابنه يقول له : ما يبكيك ؟ أما بشرك رسول الله « ﷺ » بكذا ، أما بشرك بكذا؟ قال : وهو في ذلك يبكي ووجهه إلى الحائط ، قال : ثم أقبل بوجهه إلينا فقال : إن أفضل مما تعد على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ولكني قد كنت على أطباق ثلاث : قد رأيتني ما من الناس من أحد أبغض إليّ من رسول الله « ﷺ » ولا أحب إليّ من أن أستمكن منه فأقتله، فلو مت على تلك الطبقة لكنت من أهل النار ، ثم جعل الله الإسلام في قلبي فأتيت رسول الله « ﷺ » لأبايعه فقلت : أردت أن أشترط، فقال: تشترط ماذا؟ فقلت : أن يغفر لي، فقال أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة

---

(١) وينظر ابواب : الجمع بين الكسب والعلم - تعلم الدين قبل الكسب - تعلم الرجل لأهله - تعليم الرجل لسان الأعداء وغيره للضرورة الدينية - وترك الإمام رجلاً من اصحابه للتعليم - إرسال الصحابة إلى البلدان للتعلم - الرحلة في طلب العلم

ويتبين منها كلها الحرص الشديد على طلب العلوم بأنواعها ، فكيف بهم عند طلب علم العقائد وأصول دينهم ؟ لا شك انهم كانوا اشد حرصاً عليها

تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله، فقد رأيتني ما من الناس أحد أحب إليّ من رسول الله « ﷺ » ولا أجلّ في عيني منه، ولو سئلت أن أنعته ما أطقت لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني إجلالاً له ، فلو مت على تلك الطبقة رجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء بعد فلست أدري ما أنا فيها أو ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني فشنوا عليّ التراب ، فإذا فرغتم من قبري فامكثوا عند قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها ! فإني أستأنس بكم حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربي « وأخرجه مسلم بسند ابن سعد بسياقه نحوه »[1] .

لا عجب إذن أن يتبوأ الصحابة ﷺ القمة في التأسي برسول الله « ﷺ » عقائد وسلوكاً ، وأن يعضوا بالنواجذ على الكتاب والسنة لضمان استمرارية الرسالة التي نيطت بهم بعده « ﷺ » للمحافظة على العهد الأول ، فلم يفرطوا في شيء من عقائد الإسلام وشرائعه، فقد تصدى أبو بكر الصديق ﷺ لأهل الردة بقوة، فمن أقواله : (والله لا أبرح أقوم بأمر الله وأجاهد في سبيل الله حتى ينجز الله لنا ويفي لنا عهده فيقتل من قتل منا شهيداً في الجنة ويبق من بقي منا خليفة الله في أرضه ووارث عباده الحق، فإن الله تعالى قال، وليس لقوله خلف : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [النور الآية٥٥][2] .

إن هذه المواقف ـ وغيرها مما تضيق هذه الدراسة عن استيعابه ـ خير دليل على تمكّن الإيمان من القلوب، والمعرفة الصحيحة لعقائد الإسلام التي تلقاها الصحابة من الرسول« ﷺ » الذي علمهم كل شيء ، وأولّها ـ بداهةً ـ مسائل أصول الدين .

* فمنها : عن عائشة ﷺ أن رسول الله « ﷺ » بعث رجلاً على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلواتهم فيختم (**بقُل هو الله أحد**) فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله « ﷺ » فقال: سلوه لأي شيء يصنع هذا ! فسألوه فقال : لأنها صفه الرحمن فأنا أحب أن أقرأها، فقال رسول الله « ﷺ » : أخبروه أن الله عز وجل يحبه، أخرجه الشيخان »[3] .

---

(١) حياة الصحابة جـ٣ ص ٥٢-٥٣ .   (٢) نفسه ص٦٠ .   (٣) نفسه ص٢٢ .

* وأخرج أحمد عن أبي هريرة -ﷺ- قال: قلنا: يا رسول الله إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة، **فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد،** قال «ﷺ»: لو أنكم تكونون على كل حال عليالحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ولزارتكم في بيوتكم، إلى آخر الحديث روى الترمذي وابن ماجة بعضه »[1].

* وعن عائشة -ﷺ- أنها قالت :

تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء إني لأسمع خولة بنت ثعلبة -ﷺ- ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله «ﷺ» وهي تقول يا رسول الله ! أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، **اللهم إني أشكو إليك** ! قالت: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ [المجادلة الآية ١][2] .

* وأخرج البيهقي عن أنس بن مالك ﷺ أن نبي الله «ﷺ» سئل : كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة »[3] .

* وأخرج الإمام أحمد عن الوليد بن عبادة قال : دخلت على عبادة ﷺ وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت : يا أبتاه! أوصني واجتهد لي ، فقال : أجلسوني. فلما أجلسوه قال : يا بني إنك لم تطعم الإيمان ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، قلت : يا أبتاه ! وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال : تعلم أن ما أخطاك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بني سمعت رسول الله «ﷺ» يقول : إن أول ما خلق الله القلم ثم قال له : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة ، يا بني ، إن مت ولست على ذلك دخلت النار . أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح غريب »[4] .

(١) نفسه ص ٩٣ (٢) نفسه ص ٢٧-٢٨ .
(٣) نفسه ص٢٣ (٤) نفسه ص ٣٠

إلى غير ذلك من وقائع تصور لنا كيف حقق الصحابة ﷺ بسلوكهم ما اعتقدوه إيماناً ، فمع صدق الإيمان كادوا يعاينون مشاهد الآخرة وهم في الدنيا ، وقد مضى بنا حديث أبي هريرة عن وصف أنفسهم عندما يكونون عند رسول الله « ﷺ » فترق قلوبهم فيصبحون من أهل الآخرة .

* وكان البعض يترقب علامات الساعة الكبرى التي علم بها من رسول الله « ﷺ »، فقد أخرج ابن جرير عن عبدالله بن أبي مليكة قال : غدوت على ابن عباس ﷺ ذات يوم فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت ، قلت : لم ؟ قال : طلع الكوكب ذو الذنب فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت ؛ وفي رواية الحاكم : فخشيت أن يكون الدجال قد طرق »[1] .

* أما الروايات الدالة على تمثل الحياة البرزخية بعد الموت فهي أكثر من أن تحصى، نختار منها ما رواه أبو نعيم عن الضحاك بن عبدالرحمن قال : دعا أبو موسى الأشعري ﷺ فتيانه حين حضرته الوفاة فقال : اذهبوا واحفروا وأوسعوا وأعمقوا فجاؤا فقالوا : قد حفرنا وأوسعنا وعمّقنا ، فقال : والله إنها لإحدى المنزلتين : إما ليوسعن على قبري حتى تكون كل زاوية منه أربعين ذراعاً ثم ليفتحن لي باب إلى الجنة فلأنظرن إلى أزواجي ومنازلي وما أعدّ الله تعالى لي من الكرامة ثم لأكونن أهدى إلى منزلي مني اليوم إلى بيتي ثم ليصيبني من ريحها وروحها حتى أبعث ، ولئن كانت الأخرى ـ ونعوذ بالله منها ـ ليضيقن عليٌّ قبري حتى يكون في أضيق من القناة في الزج ثم ليفتحن لي باب من أبواب جهنم فأنظرن إلى سلاسلي وأغلالي وقرنائي ثم لأكونن إلى مقعدي من جهنم أهدى مني اليوم إلى بيتي ثم ليصيبني من سمومها وحميمها حتى أبعث »[2] .

ولنعد بعد لشرح موقف الصحابة من العقائد بالمقارنة بمن تلاهم من القرون،

---

(۱) نفسه ص ٣٤-٣٥ قال تعالى ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء الآية ٩٧] .
(٢) نفسه ص٣٨ .

فنقول: إذا كانت الأجيال التي تَلَتْهم قد تلقت العقائد بالتعلم سماعاً أو قراءة ودراسة ونقلاً، فإن الصحابة -رضي الله عنهم- تميَّزوا بتعلم العقائد من الرسول (ﷺ) مباشرة - لا بالصيغة النظرية المجردة - كما نجدها مدوَّنة بكتب علم الكلام - بل إنهم من فرط استيعابهم لها عايشوها وتفاعلوا معها في حياتهم وواقعهم ، وكفى بهذا دليلاً على عمق فهمهم لها وتدبرهم لأبعادها .

وأخيراً ؛ كيف يُظن - مع هذا السجل الحافل الذي لم ننقل عنه إلا النزر اليسير - أنهم كانوا مشغولين بالجهاد، فلم ينظروا ولم يتدبروا قضايا العقائد ومسائل أصول الدين ؟! .

* * *

٢.ترجيح أساليب القرآن على أساليب الفلسفة اليونانية :

لابن الوزير اليماني كتاب بعنوان (**ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان**)، وهو دال على مضمونه إذ عرض فيه للأدلة العقلية المستخلصة من الآيات الخاصة بإثبات الله عز وجل وصفاته والنبوة والمعاد وغيرها من مسائل (أصول الدين) التي خاض فيها علماء الكلام بالمنهج الممتزج بالفلسفة اليونانية كما مرَّ بنا في تحليل الأستاذ أحمد أمين .

وقد أفاض ابن الوزير بكتابه المشار إليه في إقامة الحجج على بطلان من يدّعي قصور القرآن عن الوفاء بالدلالة على الربوبية والتوحيد والنبوات، مع التنبيه على قدر القرآن وأنه في ذلك أجل نفعاً وخطراً وقدراً وأثراً من جميع تصانيف المتقدمين المتعمقين ، وتدقيق المتكلمين :

١- قال تعالى ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر الآية ٢١] وهذه الآية تصف القرآن بأنه يؤثر في الجبال الراسيات ، والصخور

القاسيات ، فكيف لا يؤثر في قلب المتدبر له، والواصف له الملك الرب الجليل علام الغيوب الذي يستحيل عليه الخطأ ، فكيف يترك ما في هذا الذكر المبين من البراهين، ويعتمد على تآليف المخلوقين وأساليب الجدليين ؟[1] .

كذلك فإن القرآن يحث على النظر والتدبر والاكتفاء به : قال تعالى ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف الآية ١٨٥] ، وقال عز وجل ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد الآية :٢٤] ؟

وهذه الآيات وغيرها دالة على عظيم النفع في تدبره بحيث لا يماثله في هذه الأشياء غيره ولا يقاربه .

أضف إلى ذلك تفرد القرآن الحكيم بخصائص ومزايا لا يشاركه فيها كتاب آخر، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف الآية:٥٢] .وتفسير قوله ﴿ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ دال على علم مطابقة ما اشتمل عليه القرآن من الإيجاز في موضعه والاكتفاء بالجملة في موضعه لما تقرر في علم الله تعالى بالغيوب من مصالح المؤمنين الذين خصّهم بأنه هدى لهم ورحمة .

بمثل هذه الآيات وغيرها يستقرئ ابن الوزير الأدلة على عظم قدر القرآن، وأنه أجل نفعاً وخطراً وقدراً وأثراً من جميع تصانيف المتقدمين المتعمقين ، وتدقيق المتكلمين .

٢-إجماع علماء الإسلام من جميع الطوائف على أن القرآن يفيد معرفة أدلة التوحيد من غير ظن ولا تقليد، بل القرآن العظيم هو الذي منه تعلّم المتكلمون النظر، ولم يقتصروا على القدر الكافي النافع المذكور في كتاب الله تعالى :

١- من إجابة أمير المؤمنين عليّ -رضي الله عنه- من سأله أن يصف ربنا (فنزداد له حباً ومعرفة) فرد عليه في خطبة جامعة، جاء فيها فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته.

---

(١) ص٩-١٠ من كتاب ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان . دار الكتب العلمية-بيروت ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٢ـ ومن أقوال الإمام يحيى (٧٤٩هـ) :

إن أكثر القرآن مشتمل على ذكر الأدلة وشرحها ، ولنذكر منها آية واحدة ليقاس بها الباقي، وهي قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس الآية ٧٧] إلى آخر السورة، فالله تعالى حكى في هذه الآية إنكار المنكرين للإعادة وقرر وجه شبههم، وأجاب عن كل واحدة منها بجواب يخصه وطول في بيان ذلك، إلى قوله : وأما الآيات الدالة على إثبات الصانع، وصفاته، والنبوة، والرد على منكريها، فأكثر من أن تحصى[1] .

٣ـ ومن أقوال القاضي عبدالجبار المتكلم المعتزليّ في ذكر إعجاز القرآن « واتفق فيه أيضاً استنباط الأدلة التي توافق العقول وموافقته ما تضمنه لأحكام العقل على وجه يبهر ذوي العقول ويحيرهم، فإن الله سبحانه بيّنه على المعاني التي يستخرجها الكتكلمون بمعاناة وجهد بألفاظ سهلة قليلة تحتوي على معان كثيرة، كما ذكره عز وجل في نقض مذاهب الطبيعيين في قوله تعالى ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ [الرعد الآية : ٤] [2] .

٤ـ وقال القاضي عياض في ذكر إعجاز القرآن ومنها : جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة، ولا محمد « ﷺ » قبل نبوته خاصة معرفتها، ولا القيام بها ولا يحيط بها أحد من علماء الشرائع والحجج والتنبيه على طرق الحجج العقلية[*]، والردعلى فرق الأمم ببراهين قوية، وأدلة بينة سهلة الألفاظ موجزة المقاصد رام المتحذلقون بعد أن ينصبوا أدلة مثلها، فلم يقدروا عليها كقوله ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ

---

(١) نفسه ص ١٧ .   (٢) نفسه ص ١٩ .

(*) ويقول بن تيمية في كتابه (دره ثقافة العقل والنقل) جـ٧ ص٢،٣ : والرسول « ﷺ » وإن كان يخبر أحياناً بخبر مجرد كما يأمر أحياناً بأمر مجرد، فهو يذكر مع إخباره عن الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، من الدلائل والبيان والهدى والرشاد، ما يبين الطرق التي يعلم بها ثبوت ذلك، وما يهدي القلوب ويدل العقول على معرفة ذلك، ويذكر من الآيات والأمثال المضروبة ، التي هي مقاييس عقلية وبراهين يقينية، مالا يمكن أن يذكر أحد من أهل الكلام والفلسفة ما يقاربه، فضلاً عن ذكر ما يماثله أو يفضل عليه .

.. إلا وقد جاء القرآن بما هو خير منه وأكمل وأنفع وأقوى وأقطع ..

الَّذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[يس الآية :٧٩]، وقوله ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء الآية : ٢٢][1] .

٥- وقال الإمام الرازي في الكلام على النبوات في ذكر المعجزات العقلية « بل أقر الكل بأنه لا يمكن أن نزيد في تقرير الدلائل على ما ورد في القرآن » .

٦- وقال الإمام الغزالي في معرفة وجود الرب تعالى : وأولى ما يستضاء به من الأبواب ويسلك من طريق النظر والاعتبار ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله بيان، ثم ساق الآيات القرآنية (*) .

٧- وقال صاحب كتاب (الوظائف في مذهب أهل الحديث والأثر)[2] في الدليل على معرفة الخالق سبحانه ووحدانيته، وعلى صدق الرسول « ﷺ »، وعلى اليوم الآخر، وأدلة هذه الأمور في القرآن .

أدلة القرآن على العقائد :

أما الدليل على معرفة الخالق فمثل قوله تعالى :﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾[يونس الآية :٣١] وقوله ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾[ق الآيات من ٦–١٠] ، وقوله تعالى ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ

---

(١) نفسه ص ٢٠ .

(٢) لم يذكر اسمه ، يبدو من عنوان الكتاب انه ينتمي إلى مذهب اهل الحديث ، ويعبر عن موقفهم .

(*) يوضح ابن تيمية نفس الفكرة بقوله « ومعلوم ان عصر الصحابة وكبار التابعين لم يكن فيه من يعارض النصوص بالعقليات فإن الخوارج والشيعة حدثوا في آخر خلافة علي والمرجئة والقدرية حدثوا في اواخر عصر الصحابة ، وهؤلاء كانوا ينتحلون النصوص ويستدلون بها على قولهم لا يدعون انهم عندهم عقليات تعارض النصوص، ولكن لما حدثت الجهمية في اواخر عصر التابعين ، كانوا هم المعارضين للنصوص برأيهم، ومع هذا كانوا مقموعين في الامة، واقلهم الجعد بن درهم (قُتِل سنة ١١٨هـ) وإنما صار لهم شوكة في اوائل المائة الثالثة ، لما قواهم من قوّاهم من الخلفاء، فامتحن الناس ، ودعاهم إلى قولهم » (درء تعارض العقل والنقل جـ٥ ص ٤٤ تحقيق د. محمود رشاد سالم ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) .

إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس الآيات من ٢٤-٣١] وقوله ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ الآيات من ٦-١٦] .

وأمثال هذه الآيات ، وهي قريب من خمسمائة آية ، ينبغي للخلق أن يعرفوا جلال الله وعظمته بقوله الصادق المعجز، فإن الدلالات الشرعية الصادرة عن اللطيف الخبير، وعن رسوله البشير النذير « ﷺ » تقنع وتسكن النفوس ، وتغرس في القلوب الاعتقادات الصحيحة الجازمة وأما الدليل على وحدانيته فيقع بما في القرآن من قوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الانبياء الآية : ٢٢] ، ونظائرها .

ب ـ وأما صدق رسوله « ﷺ » فيستدل عليه بقوله ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء الآية : ٨٨] ونظائرها .

جـ ـ وأما اليوم الآخر فيستدل عليه بقوله ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس الآية :٧٩] وبقوله ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة الآيات :٣٦ -٤٠] وبقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج الآيات ٥-٦] ، وأمثال ذلك في القرآن كثيرة، فهذه أدلة قاطعة جلية تسبق إلى الأفهام ببادىء الرأي والنظر، ويشترك كافة الخلق في إدركها، فأدلة القرآن والسنّة مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، بل كالماء الذي ينتفع به الصبي ، والرضيع، والرجل القوي، ولهذا كانت أدلة القرآن سائغة جلية : الا ترى أن من قدر على الإبداء فهو على الإعادة اقدر ، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وأن

التدبير لا ينتظم في دار واحدة بمدبرين، فكيف ينتظم في جميع العلم، وأن من خلق علم، ثم خلق كما قال تعالى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك الآية : ١٤] فهذه أدلة كمجرى الماء الذي جعل منه كل شيء حياً إلى آخر كلامه .

ويُعلّق ابن الوزير اليماني في النهاية على ذلك بقوله وبالجملة، فتقصى كلام علماء الإسلام في مثل هذا يمل ، والحاجة إلى الاحتجاج عليه من عود الدين غريباً من أدل دليل على عناد المخالف .

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل [1] .

٣. الأدلة الشرعية عقلية أيضاً :

كان من دأب المتكلمين والمتفلسفة الاحتجاج على مخالفيهم بأنهم يستندون إلى الأدلة العقلية والبراهين المنطقية للدفاع عن العقائد الدينية لأن الأدلة الشرعية في ظنهم لا تفي بالغرض، وأنهم وحدهم أهل النظر والدراية، وأنهم قد أتوا بما لم يأت به الأوائل من الصحابة والتابعين (*) .

وقبل مناقشة هذه الدعوة العريضة، نمهد لها بعرض رأي مؤداه أن المظهر العام للأديان تبدأ بعقيدة ساذجة قوية لا تأبه لخلاف، ولا تلتفت إلى بحث « ينفذ نظرها إلى أسس الدين فتعتنقها وتؤمن بها إيماناً تاماً في غير ميل إلى بحث وفلسفة ، ثم يأتي طور البحث والنظر وصبغ مسائل الدين صبغة علمية فلسفية ، وإذ ذاك يلتجئ

---

(١) ترجيح أساليب القرآن ص١٢٢ ؛

وهو يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة والنسائي عن ابن مسعود وابن ماجة عنهما وعن انس ان النبي « ﷺ » قال : بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء

(*) يعارض ابن تيمية هذه الفكرة بقوله في (درء تعارض العقل والنقل جـ٧ ص ٩ ٠ ٣)

[وأما الطريقة العقلية التي ذكرها، فهي طريق دل عليها القرآن، وارشد إليها ، وبه عليها، وهي الاستدلال بما يجدونه في أنفسهم وفي سائر المصنوعات من آثار الصنعة، ودلائل الحكمة الشاهدة على ان لها صانعاً حكماً عالماً خبيراً . . .]

ويقول بنفس المصدر جـ١ ص٢٣٣ [ولو كان الناس محتاجين في أصول دينهم إلى ما لم يبينه الله ورسوله « ﷺ » لم يكن الله قد أكمل للأمة دينهم، ولا أتم عليهم نعمته ، فنحن نعلم ان كل حق يحتاج إليه في أصول دينهم لابد ان يكون مما بيّنه الرسول« ﷺ » إذ كانت فروع الدين لا تقوم إلا باصوله ، فكيف يجوز ان يترك الرسول« ﷺ » اصول الدين التي لا يتم الإيمان إلا بها، لابد ان يكون مما بين الرسول « ﷺ » إذ كانت فروع الدين لا تقوم إلا باحواله ، فكيف يجوز ان يترك الرسول« ﷺ » أصول الدين التي لا يتم الإيمان إلا بها بينها للناس ؟]

رجال الدين إلى الفلسفة يستعينون بها في تدعيم حججهم وتقوية براهينهم »[1]

ويمضي الأستاذ أحمد أمين بعد عرض هذا الرأي فيعمم سريانه على ما كان في اليهودية والنصرانية والإسلام . إذ ما كاد ينقضي العصر الإسلامي الاول في إيمان لا يعتوره كثير من الجدل، فلما هدأ الناس أخذوا ينظرون ويبحثون ويتوسعون في النظر والبحث، فاستتبع ذلك اختلاف في وجهات النظر ، فاختلاف الآراء والمذاهب »[2].

ولكن هناك رأياً آخر خلاصته أنه إذا صحّ هذا في تاريخ اليهودية والنصرانية، فلا يصح في تاريخ الإسلام .

ويقوم هذا الرأي على دعامتين :

الأولى : إن استقراء عوامل نشأة علم الكلام الاعتزالي ومراحله يصل إلى نتائج مؤداها أنه (الكلام في الدين بغير طريقة المرسلين)[3] ، لا يدل على التطور من البسيط إلى المركب ، أو من السذاجة إلى النضج العقلي ، بل يدل على الانحدار من مستوى الكمال إلى سفح النقصان ، ومن الجماعة الواحدة إلى الفرق المتعددة، ومن وحدة الكلمة إلى النزاع الجدلي .

وقد مر بنا - عند عرض أسباب نقد علم الكلام - رأي ابن جمرة الاندلسي المدعم بالآية والأحاديث عن كمال الدين في العصر الاول، ووصف أهله بأنهم الأفضل عمن تلاهم، وأبدى عجبه من المتكلمين لانهم قلبوا هذا الوضع الصحيح ، فحوّلها الفاضل مفضولاً والمفضول فاضلاً .

الثانية : أن النصوص الشرعية هي في نفس الوقت عقلية، فلا تحتاج إلى الاستعانة بفكر فلسفي يكملّها من خارجها .

كذلك فإن تقسيم الأدلة إلى شرعية وعقلية بالفصل بينهما - أي جعل الشرعية

---

(١) ضحى الإسلام جـ٣ ، احمد امين ص٣ (٢) نفسه .

(٣) يعرِّف ابن تيمية علم الكلام بانه (حقيقة عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير طريقة المرسلين) الفتاوى، جـ١٤ ص٤٦٠ / ٤٦١

مقابل العقلية، يوهم الناس بتعارضهما[1]، بينما هما في الحقيقة - إذا تعمقنا في البحث والدراسة - متعاضدان متداخلان يكاد يتشابك كلاهما بالآخر، كما سيتضح بعد الشرح الآتي :

صلة العقل بالعلوم الشرعية:

لا يسلِّم علماء الحديث والفقهاء للمتكلمين بأنهم وحدهم أصحاب المنهج العقلي، لأن صلة الشرع بالعقل صلة وطيدة، إذ يأمر الشارع باستخدام العقل، ويمدح الذين (يعقلون) ويذم الذين (لا يعقلون) ، ويتعذر حصر الآيات القرآنية ذات الاستدلالات العقلية : كضرب الأمثلة، والأقيسة والعبر والبراهين الدالة على توحيد الخالق عز وجل ، وإثبات نبوة الأنبياء عليهم السلام ، والبعث والنشور، إلى آخر هذه العقائد التي هي من أصول الدين التي يتناولها المتكلمون .

ومدخل الحديث عن صلة العقل بالعلوم الشرعية يقتضى التعريف أولاً بالعقل:

العقل:

العقل كما يعرّفه الراغب الأصفهاني يقال بحدّين :

١- يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم .

٢- ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل ، ولهذا قال أمير المؤمنين عليّ - رضي الله عنه - :

العقل عقلان : مطبوع ومسموع .

ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع .

كما لا ينفع ضوء الشمس وضوء العين ممنوع .

وهذا العقل هو المعنى بقوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ .

---

(١) ومعلوم أن عصر الصحابة وكبار التابعين لم يكن فيه من يعارض النصوص بالعقليات فإن الخوارج والشيعة حدثوا في آخر خلافة عليّ، واما المرجئة والقدرية حدثوا في أواخر عصر الصحابة ، وهؤلاء كانوا ينتحلون النصوص ويستدلون بها على قولهم لا يدّعون أنهم عندهم المعارضون للنصوص برأيهم ، ومع هذا كانوا مقموعين في الأمة ، وأولهم الجعد ابن درهم (قُتِلَ ١١٨هـ) . وإنما صار لهم شوكة في أوائل المائة الثالثة ، لما قوّاهم من قوّاهم من الخلفاء ، فامتحن الناس ، ودعاهم إلى قولهم ، (درء تعارض العقل والنقل جـ٥ ص٢٤٤) .

وكل موضوع ذمّ الله فيه الكفّار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول نحو: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ ونحو ذلك من الآيات ، وكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول .

وأصل العقل الإمساك والاستمساك كعقل البعير بالعقل »[1] .

الشرع

وشرع الله تعالى هو الدين الذي وضعه من عقائد وأحكام ، والشرعة والشرع والشرعية خاصة بالأحكام والعبادات ، والمنهج الطريقة الواضحة للعبادة، قال تعالى ﴿ .. لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ .. ﴾ [المائدة الآية :٤٨][2] .

يرى ابن تيمية أن (الشريعة) كالسنة فهي ما سنة الرسول « ﷺ » وما شرعه، فقد يراد به ما سنّة وشرعة من العقائد ، وقد يراد به ما سنّة شرعة من العمل، وقد يراد به كلاهما .

واسم (السنّة) و(الشرعة) قد يكون في العقائد والأقوال، وقد يكون في المقاصد

---

(١) المفردات ص ٣٤١ / ٣٤٢ .

(٢) قاموس قرآني ص٢٤٨ لحسن محمد موسى ـ مطبعة خليل إبراهيم بالإسكندرية ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .

درء تعارض جـ٧ ص٣٠٩

١ـ إن العلم بصدق النبي « ﷺ » له طرق متعددة .

٢ـ وأما الطريق العقلية التي ذكرها في طريق دل عليها القرآن، وارشد إليها ونبّه إليها، وهي الاستدلال بما يجدونه في انفسهم وفي سائر المصنوعات من آثار الصفة ودلائل الحكمة الشاهدة على أن لها صانعاً حكماً عالماً خبيراً ..

وص٢٨٩ : وليس هدى الكتاب بمجرد كونه خبراً ، كما يظنه بعضهم ، بل نبّه وبيّن ودلّ على ما به ، يُعرف الحق من الباطل ، من الأدلة والبراهين ، وأسباب العلم واليقين ..

وص٣٢٤ : فطرق العلم ثلاث : أحدها : الحس الباطن والظاهر ، وهو الذي تُعلم به الامور الموجودة باعيانها .

الثاني : الاعتبار بالنظر والقياس ...

.. الكليات إنما تُعلم بالعقل ، كما ان المعنيات إنما تُعلم بالإحساس .

الثالث : الخبر .. وهو أعم وأشمل ، لكن الحسي والعيان اتم وأكمل .

والأفعال، فالأولى في طريقة العلم والكلام، والثانية في طريقة الحال والسماع - الخاص بالصوفية - وقد تكون في طريقة العبادات الظاهرة والسياسات السلطانية، فالشريعة تنتظم كل هؤلاء لأنها كتاب الله وسنة رسوله « ﷺ » ، وما كان عليه سلف الأمة في العقائد والأحوال والعبادات والأعمال ، والسياسات والأحكام ، والولايات والعطيات »[1] .

ولكن التجزئة حدثت بعد السلف في العصور التالية، « فالمتكلمة جعلوا بإزاء الشرعيات العقليات أو الكلاميات، والمتصوفة جعلوا بإزائها الذوقيات والحقائق، والمتفلسفة جعلوا بإزاء الشرعية الفلسفة، والملوك جعلوا بإزاء الشرعية السياسة، وأما الفقهاء والعامة فيخرجون عما هو عندهم الشريعة إلى بعض هذه الأمور، أو يجعلون بإزائها العادة أو المذهب أو الرأي »[2] .

هذا فيما يتعلق بواقع المسلمين في الحياة العقلية والوجدانية والسياسية بعد العصور المفضّلة الأولى لأن سلف الأمة طبقوا الشريعة بمفهومها الشامل المتكامل .

كما أصبح اسم (الشريعة) في العصور التالية يطلق على بعض أجزائها ، فبعد أن كان اسم الشريعة والشرع والشرعة ينتظم كل ما شرعة الله من العقائد والأعمال، أخذت التجزئة تأخذ طريقها في أسماء المؤلفات فألف أبو بكر الآجري (كتاب الشريعة)، وصنف الشيخ أبو عبدالله بن بطة (كتاب الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية) وغيرهما ، وكان مقصودهم باسم الشريعة : العقائد التي يعتقدها أهل السنة من الإيمان (مثل أن الإيمان قول وعمل، وأن الله موصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله « ﷺ » ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله خالق كل شيء ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنهم لا يكفرون أهل القبلة بمجرد الذنوب، ويؤمنون بالشفاعة لأهل الكبائر، ونحو ذلك من عقود أهل السنة، فسموا أصول اعتقادهم شريعتهم ، وفرقوا بين شريعتهم وشريعة غيرهم ،

---

(١) مجموعة الفتاوى جـ١٩ ط الرياض .
(٢) فتاوى جـ١٩ ط الرياض ص٣٠٨ .

أي أنهم أطلقوا اسم الشريعة على من يسميها غيرهم(العقليات) و(علم الكلام) أو ما يسميها الجميع (أصول الدين) أو يسميها بعضهم (الفقه الأكبر)[1] .

هذه هي الشريعة من حيث الاسم والمضمون في العصور الأولى عند سلف الأمة ، ثم ما حدث من تغييرات في العصور التالية .

ولما كانت الشريعة عند السلف بهذا الشمول والاتساع ، كان لدور العقل في العلم بها وفهمها واستيعابها أكثر جلاء ووضوحاً، إذ كان القاسم المشترك اللازم في التعليم تفسيراً وفهماً ، وكانت العلاقة بينهما كعلاقة الضوء بالعينين، ثم استحدث على أثر اقتباس مصطلحات الفلسفة اليونانية بواسطة المتكلمين ، استحدث التقسيم أو الفصل بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية، وأصبح الظن السائد أن الأولى تُعلم بالشرع والثانية تُعلم بالعقل وشاع الظن بأن الشريعة تخالف العقلية .

وجاء ابن تيمية ليجلي هذه القضية الهامة وصنّف كتاباً يتضمن شرحاً وافياً للعلاقة بين العقل والشرع سمّاه (درء تعارض العقل والنقل) ويقع في عشرة أجزاء .

وسنوجز هنا تحليله للعلاقة بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية، أو دور العقل في نظرية المعرفة .

دور العقل في نظرية المعرفة :

يرى ابن تيمية أن قول الناس : العلوم الشرعية والعقلية قد يكون بينهما عموم وخصوص، وقد يكون أحدهما قسيم ـ أو مقابل ـ الآخر ، ويكون الصواب في مواضع

---

(١) نفسه ص٣٠٧ ، وكذلك لفظ السنة فإن المصنفين في هذا الباب أصبحوا يسمون كتبهم باسم (كتاب السنة) كالسنة لعبدالله بن احمد والخلال والطبراني والسنة للجعفي وللأثرم ، والخلق كثير صنفوا في هده الابواب، وسموا ذلك كتب السنة ليميزوا بين عقيدة أهل السنة وعقيدة أهل البدعة .
قلت [ذكر الخطّابي طريقين إلى معرفة الله وصفاته : طريقاً سمعياً وطريقاً عقلياً وكلاهما طريق شرعية معروفة بالقرآن .
اما الاولى : فهو ان تعلم نبوة النبي« ﷺ » بما اظهره الله على يديه من المعجزات ... وقد نبّه الخطّابي ان فيما جاء به الرسول « ﷺ » من بيان الطرق العقلية التي يعرف بها ثبوت الخالق توحيده وصفاته .. لا بمجرد خبره .. فبيّن ما جاء به من أصول الدين وأدلته العقلية التي يُعلم بها ما يمكن معرفته بالعقل ، وعرّفهم عن الغيب الذي لا يمكنهم معرفته بمجرد عقلهم] . جـ٧ ص٣٠٢/٣٠٣ درء تعارض العقل والنقل .

أن يقال : السمعية والعقلية .

وشرح ذلك يتطلب التعريف بقسمين من أقسام علوم الشريعة :

١ـ ما أمر الشارع، وهو العلم المشروع، ووصف بذلك بحسب حكمه في الشرع ـ كما يقال: العمل المشروع وهو الواجب أو المستحب وربما دخل فيه المباح بالشرع، ويصح القول في هذا التقسيم بالعلم الشرعي والعمل الشرعي، والنظر في جهة المدح والذم والثواب والعقاب والأمر والنهي وهوخطاب التكليف،« وإن شئت أن تقسم المأمور به إلى ما يعرف بالعقل فقط، وإلى ما يعرف بالشرع أيضاً، فيكون شرعياً خبراً وأمراً: فإن ما علم بالشرع لا يخلو: إما أن يراد به إخبار الشارع أو دلالة الشارع، فإذا عنى به ما دل عليه الشارع مثل: دلالته على آيات الربوبية ودلالة الرسالة ونحو ذلك، فإنه يجتمع في هذا أن يكون شرعياً عقلياً، فإن الشارع لما نبّه العقول على الآيات والبراهين والعبر اهتدت العقول، فعلمت ما هداها إليه الشارع »[1] .

٢ـ ما أخبر به الشارع، وهو العلم المستفاد من الشارع، وينقسم إلى علم عقلي وسمعي، أي بالنظر من جهة طريقة ودليله وصحته وفساده ومطابقته ومخالفته : وهذا لا يخلو، إما أن يمكن علمه بالعقل أيضاً، أو لا يمكن ، فإن لم يمكن فهذا يعلم بمجرد إخبار الشارع؟ إن أمكن علمه بالعقل فهل يوجد مثل هذا ؟ أي أن يكون أمر أخبر الشارع به وعلمه ممكن بالعقل أيضاً ؟ ولم يدل الشارع على دليل له عقلي، فهذا ممكن ولا نقص إذا وقع مثل هذا في الشريعة، فإنه إذا عرف صدق المُبلِّغ جاز أن يعلم بخبره كل ما يحتاج إليه ، ولا ريب أن كثيراً من الناس لا ينالون علم ذلك إلا من جهة خبر الشارع « ﷺ »، وقد أحسنوا في ذلك حيث آمنوا به .

---

(١) نفسه ص ٢٢٩ .

جـ٧ ص٢٩٧ / ٣٠٠ درء تعارض العقل والنقل

ومن كلام الخطّابي [وإنما ثبت عندهم أمر التوحيد من وجوه :

أحدها: ثبوت النبوة بالمعجزات التي أوردها نبيهم« ﷺ » من كتاب أعياهم أمره .. وما شاهدوه من آياته ومعجزاته ..

الثاني : .. وإلى ما وجدوه في أنفسهم وفي سائر المصنوعات من آثار الصنعة وأما ما ذكره الخطّابي من القياس والاعتبار في الأحكام الشرعية .. فهذا كلامي في القياس العلمي الشرعي ... كذلك في القياس العقلي الخبري...

ونعود للإجابة على السؤال المطروح هاهنا وهو : هل يكون الأمر الذي أخبر به الشارع وعلّمه ممكن بالعقل أيضاً ؟[*] .

يجيب ابن تيمية على ذلك بقوله :« وقد ذهب خلائق من المتفلسفة والمتكلمة والمتفقهة والمتصوفة والعامة ، إن فيما أخبر به الشارع أمور قد تعلم بالعقل أيضاً ، وإن كان الشارع لم يذكر دلالته العقلية »[1] .

ولكن ابن تيمية يرى أن الشارع نبّه في كل ما يمكن علمه بالعقل على دلالة عقلية، ويتضح ذلك لمن يتأمل وجوه دلالة الكتاب والسنّة وما فيها من جلي وخفي وظاهر وباطن .

وأوضح الأمثلة على ذلك هو الاستدلال على الخالق عز وجل بخلق الإنسان، فإنه استدلال في غاية الحسن والاستقامة « وهي طريقة عقلية صحيحة وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها وبيّنها وأرشد إليها، وهي عقلية، فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن ومولوداً ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول « ﷺ » بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول « ﷺ » أو لم يخبر ، لكن الرسول « ﷺ » أمر أن يستدل به ودل به وبيّنه واحتج به ، فهو دليل شرعي لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به ، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته »[2] .

(*) ويسعى ابن تيمية في تعريفه للعقل للوقوف على حد جامع مانع كما يذكر المناطقة لبدفع المخالف لاختيار واحد لا ثاني لهما ويناقشه فيما يترتب عليه .

(١) نفسه ص٢٣١ .

(٢) النبوات ص٤٨ .

درء تعارض العقل والنقل جـ١ ص٨٩

.. اتعني بالعقل هنا الغريزة[1] التي فينا ، أم العلوم[2] التي استفدناها بتلك الغريزه أما الأول[3] فلم ترده وتمنع أن تريده ، لأن تلك الغريزة ليست علماً يتصور أن يعارض النقل وهي شرط في كل علم عقلي أو سمعي كالحياة، وما كان شرطاً في الشيء امتنع أن يكون منافياً له فالحياة والعزيزة شرط في كل العلوم سمعيّها وعقليّها ، فامتنع أن تكون منافية لها وهي أيضاً شرط في الاعتقاد الحاصل بالاستدلال ، وإن لم تكن علماً ، فيمتنع أن تكون منافية له ومعارضة له .

وهناك أدلة أخرى في القرآن مثل الاستدلال بالسحاب والمطر المذكور في القرآن في غير موضع ـ وهو عقلي شرعي ـ كما قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾[السجدة الآية : ٢٧]، فهذا مرئي بالعيون ، وقال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[فصلت الآية :٥٣] ثم قال ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ويلفتنا ابن تيمية إلى أن هذه الآيات التي يريها الناس حتى يعلموا أن القرآن حق « هى آيات عقلية يستدل بها العقل على أن القرآن حق، وهي شرعية لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها، ولكن كثيراً من الناس لا يسمي دليلاً شرعياً إلا ما دل بمجرد خبر الرسول « ﷺ » وهو اصطلاح قاصر »[1] .

كذلك فإن الله تعالى أخبر في غير موضع من القرآن أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فالكتاب هو الكلام المنزّل الذي يكتب والحكمة هي السنّة ، وهي معرفة الدين والعمل به، وقد قال تعالى ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾، ففرق بين الآيات الدالة على العلم التي يعلم بالعقل إنها دلائل للرب عز وجل ، وبين النذر، وهو الإخبار عن الخوف، كأخبار الأنبياء بما يستحقه العصاة من العذاب، فهذا يعلم بالخبر والنذر ، ولهذا قال ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ . وأما الآيات فتعلم دلالتها بالعقل والأنبياء جاؤا بالآيات والنذر »[2] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ ، استعرض ابن تيمية أقوال المفسرين في معنى الآية ورجّح ما صوّبه منها وهي أنها آية من آيات الله أي علامة من علاماته ودلالة من أدلة الله وبيان من بيانه، فإن كل آية قد بيّن فيها من أمره وخبره ما هي دليل عليه وعلامة عليه فهي آية من آياته، وهي أيضاً دالة على كلام الله تعالى المباين لكلام المخلوقين فهي دلالة على الله سبحانه وعلى ما أرسل به رسوله

---

(١) نفسه ص ٤٨ .
(٢) نفسه ص ١٦٢

« ﷺ » وهي عجب أيضاً من العجائب، فإن آيات الله كلها عجيبة فإنها خارجة عن قدرة البشر، والقرآن كله عجب تعجبت به الجن كما حكى عنهم تعالى أنهم قالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ فإنه كلام خارج عن المعهود من الكلام »[1] .

ويستنتج من هذا أن العلوم قسمان :

أ ـ قسم يعلم بالشرع فقط ، وهو ما يعلم بمجرد إخبار الشرع مما لا يهتدي العقل إليه بحال، ولكن الشارع قد هدى إلى دلالتها فهي بتلك الصفة « عقليات الشرعيات، أو عقلي الشارع ، أو العقل المشروع »[2] .

ب ـ قسم يعلم بالعقل فقط ، كالطب والحساب والصناعات ، فهي عقلية من غير الشارع .

وبهذا التحرير يتبين أن عامة المتفلسفة وجمهور المتكلمة لم تقدر العلوم الشرعية حق قدرها فتوهموا علو العقلية عليها لأنهم ظنوا أن العلوم الشرعية تقتصر على ما أخبر الشارع بها ، وهو غير صحيح ، لأن الشرعيات تشمل ما أخبر الشارع بها ومادل عليها « وما دل الشارع عليه ينتظم جميع ما يحتاج إلى علمه بالعقل وجميع الأدلة والبراهين وأصول الدين ومسائل العقائد، بل قد تدبرت عامة ما يذكره المتفلسفة والمتكلمة والدلائل العقلية فوجدت دلائل الكتاب والسنة تأتي بخلاصته الصافية عن الكدر، وتأتي بأشياء لم يهتدوا لها، وتحذف ما وقع منهم من الشبهات والأباطيل مع كثرتها واضطرابها »[3] .

إن التقسيم الصحيح إذن للعلوم الشرعية أنها تنقسم إلى : عقلية وسمعية ، فإن كل علم عقلي أمر الشرع به أو دل الشرع عليه فهو شرعي أيضاً ، إما باعتبار الأمر أو الدلالة أو باعتبارهما جميعاً .

---

(١) نفسه ص ١٧٧، ١٧٨ باختصار.

(٢) الفتاوى جـ١٩ ص٢٣٢ .

(٣) نفسه ص ٢٣٣ .

أما العلوم العقلية الخارجية عن دائرة الشرعية أي ما لم يأمر بها الشارع ولم يدل عليها ، فهي تجرى مجرى الصناعات كالفلاحة والبناية والنساجة ، ويصل من كل هذا إلى أن مسمى العلوم الشرعية أشرف وأوسع ، وأن بين العقلية والشرعية عموماً وخصوصاً ، ليس أحدهما قسيم - أي مقابل - الآخر وإنما السمعي قسيم العقلي ، وأنه يجتمع في العلم أن يكون عقلياً وهو شرعي بالاعتبارات الثلاثة : إخباره به ، أمره به، دلالته عليه، فالنسبة إذن إلى الشرع بهذه الوجوه الثلاثة »[1] .

٤- التقيد بالمفردات والاصطلاحات الشرعية :

مربنا التحليل الدقيق الذي قام به ابن رجب عندما ذم علم الكلام ونقد المتكلمين بسبب تحريف الكلم وصرف الفاظ الكتاب والسنة عن مواضعها بحيل منها : إما حملها على مجازات اللغة المستبعدة أو الطعن في الفاظ السنن هذا التحليل يمس قضية بالغة الأهمية سواء في طريقة فهم التراث الإسلامي بالتقيد بمفرداته واصطلاحاته، في معنى (التجديد) في العصر الحديث واختلاف الآراء حول مفهومه .

أ - وكان شيخه ابن تيمية على وعي بهذه القاعدة المنهجية ، إذ اشترط في البحث ضرورة تحديد « مدلولات الألفاظ » لانه عليها يتوقف مدار البحث ، وذلك على ضوء المعرفة باللغة والعادة والعرف الذي نزل في القرآن والسنة، وما كان الصحابة يفهموه من الرسول « ﷺ » عند سماعهم لتلك الألفاظ »[2] .

وتحديد الألفاظ قبل البدء بالمناقشة من أهم ما توصي به الفلسفة الحديثة أيضاً فقد جاء في كتاب (مبادئ الفلسفة لرابوبرت) ما نصه :

(ولا يخفى ما في تحديد الألفاظ من الفائدة ، فكثيراً ما يثور الخلاف بيننا في مسألة ، ويشتد الخلاف فيما بينهم وهم في الواقع على اتفاق ، ولو حددت الفاظهم لتجلّى لهم أنهم على رأي واحد .

ولعل منشأ الغلط في الفهم ، الغلط في تحديد الألفاظ وغموضها أو تعقيدها

---

(١) نفسه ص ٢٣٤ .

(٢) ابن تيمية وجهوده في التفسير ، ص ١٢٧ إبراهيم بركة المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م

والتباسها ، ولذلك كان (فولتير) يبدأ المناقشة دائماً بقوله (حدد الفاظك) فالعلم بمعانى الألفاظ علم صحيح لايستغنى عنه للتفكير الصحيح ، ولا للحكم الصحيح)[1] .

ب ـ والحديث له صلة أيضاً بمفهوم (التجديد) في العصر الحديث :

التجديد في العصر الحديث:

هناك اتجاه لدى بعض الباحثين في الإسلاميات سعياً وراء (التجديد) حسب مفاهيمهم؛ وقوامه عندهم تفريغ مفردات القرآن والأحاديث من مضمونها باختراع اصطلاحات والفاظ يصفون بها عقائد الإسلام وشرائعه ، وهى في حقيقتها قد تتنافى معها ،بينما التجديد بمعناه الصحيح يتناول رد المسلمين إلى حقيقة الإسلام ، ويأتى دور المجددين ، ويأتى دور المجددين الحقيقيين لإفهام الناس ـ كلما انتكس الناس في جاهلية حقيقة الإسلام [2] .

ويتبين لنا من المقارنة بين الموقفين ـ أي التجديد القائم على تغيير الاصطلاحات، والتجديد في فهم الإسلام الصحيح كما فهمه الأوائل ـ ان الاتجاه الأول يقلد التجديد في التراث المسيحى كما يعبر عنه المستشرق جب، إذ يفصح عن معنى التجديد في النصرانية بقوله (لقد قام علماء الغرب فى اللاهوت بالذات ـ أي علم الكلام المسيحى ـ بمهمة إعطاء شكل جديد للتفكير الدينى وفقاً للآراء الفلسفية السائدة . أي أنهم عبروا عن العقائد باصطلاحات الفلسفة) [3] .

إننا نخشى لو سايرنا المطالبين بالتجديد في التراث الإسلامي على هذا النحو ، نخشى أن يتحول الإسلام إلى كائن شبه (هلامي)، أي قابل للتشكيل وفق الآراء الفلسفية والمذاهب الوضعية، ومن ثم يفقد حقائقه وأصوله وقيمه الثابتة التي أجمعت عليها الأمة منذ أشرقت شمس الرسالة المحمدية .

---

(١) مبادئ الفلسفة لرابوبرت ترجمة الأستاذ أحمد أمين ص٦٦ .

(٢) تجديد في المسلمين ـ لا في الإسلام ـ د. عمر فروخ . ط دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

(٣) دعوة تجديد الإسلام ص ٦٤ ط دار الوثبة / دمشق بدون تاريخ .

ولقد سبقتنا إلى ذلك السيدة/ مريم جميلة المهتدية إلى الإسلام فجاء حكمها على مفهوم التجديد الخاطئ عند هؤلاء حكماً دقيقاً صائباً ؛ فهي ترى أن حركة التجديد بهذه الكيفية « تقتطع من الإسلام أكثر ما تستطيع ، بحيث لا يثير ذلك حفيظة الغافلين فهم يحاولون أن ينزعوا لحم الإسلام حتى يعروا عظمته ، وسيسلبونه العظم أيضاً لو استطاعوا وهم يهاجمون كل مظاهر الإسلام التي تحمل ميزات ثابتة وثقافة مستقلة عن كل أنماط الحياة المختلفة.

وهكذا - حسب زعمهم - فالإسلام تسامح وأخوة وسلام عالمي والإسلام اشتراكية وقومية وانتعاش وحرية وعلمانية وأفكار عملية وإنسانية وتقدم مادي ؛ فالإسلام في نظر هؤلاء المجددين مرن انتقائي، لدرجة أنه يمكن أن يكون أي شيء وكل شيء !!

وإذا أمكن أن يكون الإسلام أي شيء فهو إذاً لا شيء . وهذا هو ما يهدفون إليه بالضبط »[1] .

(١) الإسلام بين النظرية والتطبيق .ص ٧١

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة كما يوضحها الراغب الأصفهاني

الذريعة إلى مكارم الشريعة
كما يوضحها الراغب الأصفهاني

(الذريعة إلى مكارم الشريعة) اسم كتاب من كتب الراغب الأصفهاني ، والعنوان يشير إلى المضمون فيجذب القارئ إلى معرفة العلة في تمييز المؤلف بين الشريعة ومكارمها ، وحرصه على تحقيق غاية الكمال في شريعة الله سبحانه وتعالى، والحث على الوصول إليها .

والحق أن الراغب لم يتميز وحده بهذه الخاصية، ونقصد بذلك الرغبة الأكيدة لدى فريق كبير من مفكري الإسلام في محاولاتهم إثارة النفوس لتحقيق الكمالات الإنسانية .

ويعجبني في هذا المجال وصف محمد إقبال للمثال والواقع ، فهو يرى أنهما ليسا في نظر الإسلام قوتين متعارضتين لا يمكن التوفيق بينهما، وإنما يتحقق المثال بالسعي الموصول لجعل الواقع ملائماً معه بحيث ينتهي الأمر إلى استغراقه فيه واندماجه في ذاته، فيشع النور في كيانه كله[1] وهذاما فعله الأصفهاني في كتابه « الذريعة إلى مكارم الشريعة » ، فأرشدنا إلى مكارم الشريعة وكيف نصل إليها بواسطة تطهير النفس وتهذيب الأخلاق، مع تحليله للشخصية الإنسانية والوقوف على مكامن قوتها ومعرفة أمراضها .

والكتاب كما سيتضح لنا بعد قليل - يتضمن نظرية كاملة في الأخلاق - ربما تأثر فيها المؤلف ببعض الأفكار السائدة في عصره، ولكنه كان حريصاً على تطويعها للتصور الإسلامي .

وقبل الحديث عن نظريته الأخلاقية، علينا التعريف أولاً بالمؤلف وبيان منهجه .

الراغب الأصفهاني :

هو أبو القاسم المفضل، من أهل أصفهان نشأ بها فنسب إليها ثم انتقل إلى بغداد وتوفر على علوم اللغة والأدب والأخلاق والفقه لاسيما التفسير فجمعت مؤلفاته شتى هذه العلوم وأخذ عنه البيضاوي في التفسير كما كان الإمام الغزالي يجل مصنفاته، ويشمل المطبوع منها :

- « مفردات ألفاظ القرآن ».
- أو المفردات في غريب القرآن والحديث .
- وله في الحكمة والأخلاق .
- الذريعة إلى مكارم الشريعة .
- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين .

ومن أشهر مؤلفاته في الأدب « محاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء »، وهي موسوعة أدبية في النثر والنظم والحكم والأمثال مقسمة إلى ٢٥ باباً، كما ينسب إليه كتاب « تحقيق البيان » و« الأخلاق » ولم يستدل من ثنايا مؤلفاته العديد عن مراحل حياته .

توفي على الأرجح عام ٥٠٢هـ (١١٠٨م) [٢] .

منهج الراغب الأصفهاني :

يتضح من كتابات الراغب تأكيده على ضرورة الشرع ووضعه في مرتبة أسبق من العقل، فالشرع سائس والعقل تابع، والشرع قبل العقل، فنراه يختلف عن محاولات تقريب الشرع من العقل كابن رشد أو الغزالي، ثم أنه يعني أشد العناية بالعمل، فالإنسان لا يصير أفضل موجود إلا بالعلم الحق والعمل والمحكم [٣] .

وأمام صعوبة العثور على بيانات للتعريف بشيوخه ودراساته والمدارس التي تلقى

فيها العلم، فإنه لابد من محاولة استخلاص منهجه من كتبه نفسها .

يحدثنا الراغب في كتابه « الذريعة إلى مكارم الشريعة » عن المنهج الذي ينبغي على طالب العلم اتباعه، فيقسم العلم إلى منازل بادئاً « بحفظ كلام رب العزة ثم سماع الحديث ثم الفقه ثم علم الأخلاق والورع ثم علم المعاملات » (٤) .

نفهم من هذا أنه سلك نفس المسلك .

أما النظرة التحليلية للنصوص فلا تبعد بنا عن المغزى العام والمحور الرئيسي الذي تدور حوله أفكاره، إذ يفضل الشرع على العقل لأن الشرعيات تجري مجرى الأغذية الحافظة للصحة بينما تجري المعقولات مجرى الأدوية الجالبة للصحة .

ويبدو أنه أقرب إلى أهل الحديث منه إلى المتكلمين بالرغم من حديثه عن العقل ورفعه لشأنه في مواضع كثيرة، فقد ذكر في أحد المواضع أن ميزان « الدين » هو الذي يوصل إلى الحقيقة، ناقداً المشتغلين بعلم الكلام المعاصرين له بعامة (٥) .

على أنه أقرب إلى إدماج منهجي الشرع والعقل منه إلى التوفيق بينهما، لأن التوفيق قد يعني اختلاف طبيعة كل منهما، بينما يرى الراغب أن كلاً من الشرع والعقل يكمل أحدهما الآخر فلا استغناء لأحدهما عن غيره، فلولا العقل لم نلتزم الحجة « ولهذا أحال الله من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل وأمر أن نفزع إليه في معرفة صحتها » . ويقول :« ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقياً، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً »(٦) .

وتفسير عبارته أن العقل لا يكون وحده وإلا وقع في الشك والحيرة بينما يخاطب الدين العقل وهو مناط المسئولية والتكليف، ثم يصبح اجتماعهما تطابقاً بين نور الوحي ونور العقل كما قال تعالى ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾(٧) ، فإن محيط العقل محدود بدائرة النظر في ملكوت السماوات والأرض ، وتلقّي الحقائق الغيبية من الوحي الذي أنزله الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الإنسان بواسطة الرسل والأنبياء ولا مجال للعقل إلا الفهم والتلقي بالقبول ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ فإن من صفات العلماء الإقرار بما تعجز العقول عن اكتسابه، وعلى الحكيم العالم أن يقتدي بالنبي ﷺ (٨) .

ووقف الأصفهاني واقف الناقد لمنهج المتكلمين الجدلي .

وإذا اقتصرنا على ما أورده في كتابه (محاضرات الادباء) لم نعثر على موقفه الواضح من علم الكلام، لانه أورد وجهتي النظر المؤيدة والمعارضة، فأتى في معرض مدح علم الكلام ما يفيد أنه لازم للدفاع عن الدين في مواجهة غير المسلمين، ولكنه في موضع الذم أورد عبادة أبي يوسف المشهورة « من طلب الدين بالكلام تزندق »[٩] .

ولكنه حدد رأيه في حسم وقطع أثناء حديثه عن علم الكلام في كتابه (الذريعة) فأبان عن آثاره من إيجاد الخصومة بين المتناظرين، والخصومة عديمة الفائدة قليلة العائدة، إذ لم يذكر الله تعالى الخاصم في موضوع إلا عابة، ويشبه المتجادلين بفحلين تعاديا وكبشين تناطحا ورئيسين تحاربا « وكل واحد منهج يجتهد ان يكون هو الفاعل وصاحبه المنطبع »[١٠] .

وإذا كان الجدال مكروه للعلماء الأولياء، فكيف الجهال الاغبياء؟ ولهذا عندما اطلق الله سبحانه لرسوله ﷺ الجدال قيده بالاحسن في قوله عز وجل ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وقوله سبحانه في ذم الجدل .

ويبدو أنه لا مخرج من هذا الجهل إلا الاساس الشرعي والحقائق الإيمانية القرآنية فهي الأصول والقواعد فيقول « لا جرم ان كثيراً من مناظراتهم لا تولد إلا شبهة ولا تثمر إلا حيرة » مؤيداً رأيه بقول الله تعالى ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [١١] .

وينقد المعتزلة بخاصة الذين اشترطوا لإطلاق المؤمن على الإنسان إذا اختبر باصولهم الخمسة[١٢] .

واسترشد الراغب بالآيات القرآنية للاستدلال على مفاهيم متعددة تتناول الغرض من وجود الإنسان على هذه الأرض مستخلصاً فكرة (عمارة الأرض) التي عنى بها كأحد الأهداف الإلهية من خلق الإنسان، وفي نظرته إلى « العبادة » لم يقتصر على

المعنى الأخلاقي لها كفعل مناف للشهوات - كما سنرى تفصيلاً - ولكنه جعل الأعمال الإنسانية كلها لوناً من العبادات أي أنه بالاصطلاح الحديث جعل سيطرة الإنسان على كل وسائل الإنتاج ونجاحه في الاكتشافات العلمية في باطن الأرض وظاهرها وتعميرها واستغلال كنوزها واستخدام صنوف الآلات المبتكرة في توفير احتياجات الإنسان وتحقيق سعادته والتمتع بالخيرات . وحث على بذل الجهود الإنسانية بكافة قواها - مباشرة أو بواسطة الآلات - للوصول إلى تسخير المادة وتحسين « الحياة » على ظهر الأرض جاعلاً من كل هذه الأعمال لوناً من العبادات .

ودعاه ذلك إلى بحث مدلول (الإنسان العصري) وهو عنده الإنسان المؤمن الآخذ بالأسباب المؤدية إلى جعله مستحقاً لخلافة الله عز وجل في الأرض بالتخلق بأخلاقه سبحانه وتعالى، أي الأخذ بمكارم الشريعة وهي الحكمة والقيام بالعدالة، جاعلاً دور الحكماء يلي دور الرسل والأنبياء عليهم السلام .

ونكتفي بهذه المقدمة للتعريف بالراغب وأشهر كتبه المطبوعة، لننتقل للحديث عن مواقفه الميتافيزيقية والأخلاقية وبيان منهجه الذي جمع فيه بين العقل والنقل ومزجهما عن دقة فهم وإحاطة، وسنحاول التعبير عن هذا الامتزاج الذي يلمسه القارئ لمؤلفاته النابضة بالحياة والحركة ونخص بالذكر « الذريعة إلى مكارم الشريعة »، فنصحب معه الإنسان منذ ولادته إلى موتته الأولى ثم بعثه، ونسير معه على الدرب الطويل، نرقبه في مجاهداته وصراعاته مع هوى النفس وهواتف الشيطان، ونرتقي معه إلى الكمالات الإنسانية المتصفة بأخلاق الله عز وجل، وننظر وإياه إلى أعماق النفس البشرية في أحوالها المتعاقبة، ثم نستمع إلى إجاباته الواضحة المحددة عن الأسئلة الملحة التي تراود الإنسان في كل عصر ومصر ألا وهي :

لم خلقنا ؟ وكيف خلقنا ؟ وإلى أين المصير ؟

نظريته الأخلاقية :

من السهل أن نجد في أفكار الأصفهاني التزاماً بالتصور الإسلامي للحياة والإنسان فالحياة الدنيا في مرتبة أدنى من الحياة الأخرى المأمولة وهي ليست غاية في ذاتها ولكنها معبر للحياة الأخرى الخالدة، ومن ثم فإن الصعاب والمشاكل وألوان المتاعب والكد التي يعانيها الإنسان المسلم ينبغي أن يتقبلها عن طيب خاطر ورضى، فإن لم يستطع فبالصبر على ما يكره، فالإنسان هنا في دار امتحان وابتلاء، وكل ما يقابله فيها فإن عليه أن ينظر إليه بهذا المنظار : إنه في مرحلة اختبار ورحلة مؤقتة ليست دائمة - إنه على سفر - فإذا أصابه خير شكر الله سبحانه ، وإن أصابه شراً صبر، وهو في كلا الحالتين مثاب.

والإنسان في هذه الحياة، عليه أن يحقق العبودية لله عز وجل من حيث تنفيذ الأوامر والنواهي، ورفع راية الحق والعدل والفضيلة وكل ما هو خير حتى تصبح كلمة الله هي العليا، وعلى العكس، اجتناب الرذائل والكف عن الظلم والشرور والآثام وغيرها من كل ما يتصل بما نهى عنه.

ويحدثنا الأصفهاني في مقدمة كتابة (الذريعة إلى مكارم الشريعة) عن الغرض من تأليفه الكتاب، فيقول إنه لبيان الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها إذ باكتساب المكرمة يستحق الإنسان أن « يوصف بأن يكون خليفة الله تعالى، فالعبودية شرف الأتقياء، والخلافة شرف الصديقين والشهداء » .

وتقتضي دراسة النظرية الأخلاقية عند الأصفهاني أن نستطلع آراءه في أهم الموضوعات التي تطرق إليها، حيث تكلم عن الإنسان من حيث ماهيته مبيناً ما يفضل به على سائر الحيوان، وأنه على سفر إلى الدار الآخرة، مع بيان الغرض الذي من أجله خلق الإنسان، وعالج الصلة بين العقل وهوى النفس، كما تطرق إلى أنواع الأفعال الإرادية والغير إرادية . وأوضح مفهوم السعادة الحقيقية التي ينبغي أن يسعى لها الإنسان .

أولاً: الإنسان

ماهية الإنسان:

الإنسان عنده مركب من جسم مدركه البصر، ونفس مدركها البصيرة، أو من «بدن محسوس وروح معقول» ويستند في ذلك إلى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ فالروح هي النفس ويرى أن إضافته إلى الله تعالى تشريفها لها (١٣) .

والإنسان أفضل من سائر الحيوان بالعقل والعلم والحكمة والتدبير والرأي، وأن كل ما أوجد في هذا العالم فمن أجل الإنسان(١٤)، وهو يعني أن تخصيص الإنسان بالعقل يجعله قادراً على التمييز بين الخير والشر، وقد ارتقى إلى درجة الكمال ببعثة الأنبياء(١٥) . ويقول في إحدى عباراته «وجملة الأمر، أن الإنسان هو زبدة هذا العالم وما سواه مخلوق لأجله، ولهذا قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرةالآية: ٢٩]. والمقصود من الإنسان سوقه إلى كماله الذي رشح له (١٦) .

وللنفس الإنسانية قوتان، قوة الشهوة وقوة العقل، فبالأولى يحرص الإنسان على تناول اللذات البدنية البهيمية، وبالثانية يحرص على تناول العلوم.

كما عالج الراغب اختلاف الناس في الخلق، حيث رأى بعضهم أنها من جنس الخلقة، ولا يستطيع أحد ما جعل عليه أن خيراً وأن شراً، ويعارض هذا الرأي لأن للإنسان قوة تجعله يستطيع أن يتخلق بالأخلاق الحسنة، فقد جعل الله له سبيلاً إلى إسلاس أخلاقه، ولهذا قال تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ وإذا لم يكن الأمر كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والأمر والنهي ولما جاز عقلاً أن نسأل أحداً لم فعلت؟ ولم أنكرت؟ وكيف يكون هذا في الإنسان ممتنعاً وقد وجدنا في بعض البهائم ممكنا، فالوحش قد ينتقل بالعادة إلى التأنس والجامح إلى السلاسة (١٧)؟!

ومهما اختلف الناس في غرائزهم، من حيث قبول البعض إلى إمكان التغيير السريع

لأخلاقهم، والبعض الآخر إلى البطء، والبعض في الوسط ـ إلا أنه لا ينفك من اثر قبول.

والبواعث على طلب الخيرات الدنيوية ثلاث : أدناها مرتبة الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضره، وهي من مقتضى الهوى واذا فهي من فعل العامة، والثاني رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه، وهي من مقتضى الحياء، وهي لكبار أبناء الدنيا. والثالث تحرى الخير وطلب الفضيلة وهي من مقتضى العقل وفعل الحكماء.

أما البواعث على طلب الخيرات الأخروية فهي ثلاث أيضاً : ـ والأول الرغبة في ثواب الله تعالى والمخافة من عقابه وهي منزلة العامة، والثاني رجاء حمده ومخافة ذمه وهي منزلة الصالحين، والثالث طلب مرضاته عز وجل وهي منزلة النبيين والصديقين والشهداء، وهي أعزها وأجودها وأفضل ما يتقرب به العبد، قال تعالى ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ فإن افضل ما يتقرب العبد به إلى ربه عز وجل أن لا يريد من الدنيا والآخرة غيره [١٨] .

والرقي الإنساني نحو الخير يتم بأربع درجات ، أولها ارتداع الإنسان من المآثم وهجرها والندم عليها والعزم على ترك معاودتها ـ وهي درجة التائبين، والثانية القيام بالعبادات والمسارعة فيها بقدر الوسع ـ وهي درجة الصالحين ـ والثالثة تحري الحسنات بالعلم من غير التفات إلى المحظورات بمجاهدة هواه ـ وهي منزلة الشهداء، والرابع «أن يكون مع هذه الأحوال المتقدمة يرضى ظاهراً وباطناً بقضاء الله تعالى فلا يتزعزع تحت حكمه، ولا يتسخط شيئاً من أمره، ويعلم أن الله تعالى أولى به من نفسه، وذلك درجة الصديقين»[١٩] .

أما فعل الخير فهو مشتق من البر أي السعة في الأرض وهو المعبر عنه بانشراح الصدر واطمئنان القلب وقال ﷺ (البر طمأنينة والشر ريبة)[٢٠] وهي الأمور المحمودة العاقبة، وهذا هو تفسيره لقول الله تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ وقوله عز وجل ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .

ومن حيلة الإنسان تحري اللذات، وهي على ضربين: أحدهما كلذة الملبوسات والمشمومات والمسموعات والمبصرات، وهي تابعة للشهوة الحيوانية، وهي أغلب لأنها أقدم وجوداً في بني البشر، أما النوع الثاني من اللذات فهي لذات معقولة كلذة العلم وتعاطي الخير وفعل الجميل، ويحتاج الإنسان إلى أن يقهر لذات الحس بواسطة العقل، ولذلك قال النبي ﷺ : (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) .

وللنفس عنده نظرتان، نظرة إلى العقل لاستمداد المعارف وتمييز الحسن من القبيح، ونظرة الهوى، حيث تنسى الحقائق وتنقاد وراء القبائح، وتتسم النفس بالشرف إذا أدامت النظر إلى العقل، ولم تأخذ من اللذات البدنية إلا بما يمليه العقل المستمد من الشرع، وعلى العكس فإن النفس الدنية تذعن وتنقاد للشهوات ويستبد بها الهوى مصداقا لقوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ (٢١)

ويذهب الأصفهاني إلى أن الإنسان مفطور في أصل خلقته على إصلاح أخلاقه أو فسادها، أي أنه أثبت له حرية الإرادة، ومع تسليمه باختلاف البشر من حيث الأمزجة واختلاف أحوال الوالدين في الصلاح وفي الفساد، واختلاف ألوان الأطعمة المتناولة، واختلاف الأحوال في التعليم والتهذيب وتعويد العادات الحسنة والقبيحة(٢٢) ، وغير ذلك من الأمور التي تعد خارجة من نطاق الإرادة الإنسانية، وهي من قبيل الظروف الخارجية المحيطة به في الزمان والمكان ، إلا أنه يؤكد في النهاية أنه ما من « أحد إلا وله قوة عل اكتساب قدر من الفضيلة »، وعلى الإنسان أن يبذل قصارى جهده في الحصول عليها، والرغبة إلى الله تعالى في تكفير ما قصّر فيه « يتحقق أنه إذا فعل ما أمكنه فقد أعذر لقوله تعالى ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وعندئذ قد يزيل عنه الله باقي سيئاته كما قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ وقوله عز وجل ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (٢٣) وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد .

٢ـ الإنسان مختار :ـ

يقسم الأصفهاني الأحياء إلى ثلاثة أنواع ، نوع لدار الدنيا أي الحيوانات، ونوع للدار الآخرة وهو الملأ الأعلى، والإنسان بين هذين النوعين يصلح للدارين، لأنه واسطة بين اثنين، أحدهما وضيع وهو الحيوانات، ورفيع وهو الملائكة، فهو كالحيوانات من حيث الشهوة البدنية والغذاء والتناسل والمنازعة وغيرها من صفات الحيوانات، وكالملائكة في العقل والعلم وعبادة الرب والاتصال بالأخلاق الشريفة كالصدق والوفاء وغيرها وذلك لأن حكمة الله عز وجل اقتضت أن يرشح الإنسان لعبادته وخلافته، وعمارة أرضه، وهياه أيضاً لمجاورته في جنته، فلو خلق كالحيوانات لما صلح للمجاورة بالجنة، ولو خلق كالملائكة لما صلح لتعمير الأرض « فاقتضت الحكمة الإلهية أن تجمع له القوتين » وفي اعتبار هذه الجملة تنبيه على أن الإنسان دنيوي أخروي، وانه لم يخلق عبثا ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾[٢٤] .

أما بالنظر إلى البشر في مدى اختلافهم، فإنه يرى أن التفاوت بينهم يظهر للأسباب الآتية:

أولاً : اختلاف الخلقة ، هذا المعنى من قوله تعالى ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ والآية الاخرى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ويستشهد بما روي عن واقعة أصل الخلق « أن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام أمر أن يؤخذ من كل أرض قبضة، فجاء بنو آدم على قدر طينها الأحمر والأبيض والأسود والسهل والحزن والطيب والخبيث »[٢٥] .

ثانياً : اختلاف طبائع الوالدين وتأثير عامل الوراثة، ولهذا قال الرسول ﷺ « تخيروا لنطفكم »[٢٦] .

ثالثاً : اختلاف الوالدين من حيث الصلاح والفساد، إذ أن الطفل بحكم نشأته بينهما ومخالطته لهما، قد يتأثر بما هما عليه من جميل السيرة والخلق وقبيحها[٢٧] .

رابعاً : أثر الغذاء من حيث الرضاع وطيب المطعم ، وبسبب هذا التأثير تصف العرب صاحب الفضل بقولها « لله دره » [٢٨] .

خامساً : من حيث التربية والتهذيب وتنشئتهم على التعود بالعادات الحسنة ونبذ القبيحة، وبيان تفصيل ذلك اخذ الطفل بالآداب الشرعية وأمره بالصلاة لسبع وضربه لعشر طبقاً لحديث الرسول ﷺ، مع إبعاده عن مجالسة الأردياء لأنه يتطبع بطابعهم، وتعليمه أن يسلك السبيل القويم في أقواله وسلوكه، وأن يقتصد في المآكل والمشارب ويخالف الشهوة، « ويمتنع من مفاخره ومن الضرب والشتم والعبث والاستكثار من الذهب والفضة ويعود صلة الرحم وحسن تأدية فروض الشرع » [٢٩] .

سادساً : اختلاف الناس الذين يعيشون معهم ويختلطون بهم من حيث الآراء والمذاهب [٣٠] .

سابعاً : مدى الاختلاف في الاجتهاد في تزكية النفس بالعلم والعمل، فإذا ما اجتمع للإنسان هذا الركن، فجاهد في تعرف الحق وزكاها مع توفر الاستعدادات الجبلية من حيث طيب المنبت وصلاح الوالدين وحسن التربية عن طريق الأخذ بالقواعد السالف الإشارة إليها، بلغ المرتبة العليا من الخيرات من جميع الجهات، وحق فيه قول الله تعالى ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ على عكس من يسميهم بالرذل التام الرذيلة أي بعكس الأمور التي ذكرها [٣١] .

وهكذا نجد الأصفهاني يقر جانب عوامل الوراثة والبيئة وأصل الخلقة من حيث التكوين البيولوجي، ثم يحرص على التنويه إلا أنه مهما تفاوت الناس في هذه العوامل التي تعد في حكم الجبرية، إلا أنه ما من أحد « إلا وله قوة على اكتساب قدر ما من الفضيلة ولولا ذلك لبطلت فائدة الوعظ والإنذار والتأديب »[٣٢] ، ولذا فإن على الإنسان أن يبذل قصارى جهده ليكتسب ما يقدر عليه من أنواع الفضائل والله تعالى يعذره بقوله سبحانه ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾، فالأمر الهام والضروري، هو المحاولة وعقد النية على تغيير سلوكه وتحسينه، حتى إذا فعل غاية وسعة، وكان ذلك إيذاناً بأن يزل الله عنه باقي السيئات التي عجز عنه التخلص منها،

يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ (٣٣).

إنه يثبت جانباً جبرياً في الإنسان ـ يتمثل في عوامل الوراثة والخلقة وظروف النشأة والبيئة، ولكنه يرى أنه مختار لأفعاله، ويدعوه إلى بذل الجهد واستخدام إرادته الحرة في إصلاح نفسه وتقويم أخلاقه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وبالمقارنة بين الإنسان والحيوان واشتراكهما في بعض قوى النفس، فإن المستوى الأدنى الذى يتفق فيه الإنسان مع الحيوان من حيث القوى والطبائع الحيوانية من حيث الشهوة البدنية والغذاء والتناسل وغيرها، ولكن الإنسان ينتقل إلي مستوى أعلى حيث يتميز بالعقل ، بل إنه بسبب العقل صار إنساناً، ولكن العقل وحده لا يصلح بغير الشرع ، وهنا تظهر أهمية العبادة في السلوك الإنسانى عند الراغب الأصفهاني « فمن قام بالعبادة فقد استكمل الإنسانية ، ومن رفضها فقد انسلخ عن الانسانية فصار حيواناً أو دون الحيوان »(٣٤) لأنه بالعبادة يحقق الغاية التى من أجلها خلق كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

فما هي العبادة وما هو دورها في المجال الأخلاقي؟

العبادة كما يعرفها هي « فعل اختياري مناف للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى طاعة للشريعة »(٣٥) .

أما دورها فهو المحافظة على الفطرة التي خلق بها الإنسان المشار إليها بقوله تعالى ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾[الروم الآية: ٣٠] وقوله عز وجل ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [البقرة الآية: ١٣٨] فالصبغة هي العقول التي تميز بها الإنسان عن البهائم والاستفهام في الآية للإنكار والنفي، فلا صبغة أحسن من صبغته تعالى، ويتساءل الراغب « فكيف تذهب عنا صبغته ونحن نؤكدها بالعبادة، وهي تزيل رين القلب فينطبع فيه صورة الهداية؟ »(٣٦).

وترتفع العبادة إلى أرقى مراتبها عندما يحب الإنسان أن يتحرى ابتغاء مرضاة الله، ويؤديها بانشراح صدر بدلاً من مجاهدة النفس « ولهذا قال ﷺ : إن استطعت أن تعمل لله في الرضا باليقين فاعمله، وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير»(٣٧) .

٣ ـ الإنسان بين الدنيا والآخرة :

يرى الراغب أن الإنسان في دنياه مسافر متخذاً الدليل على ذلك قصة الخلق إذ قال تعالى ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ويستشهد بعبارة علي بن أبي طالب عليه السلام « الناس على سفر، والدنيا دار ممر لا دار مقر، وبطن أمه مبدأ سفره، والآخرة مقصده، وزمان حياته مقدار مسافته، وسنوه منازله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمواله، وأنفاسه، وخطاياه يسار به سير السفينة براكبها »(٣٨) .

فالغاية للإنسان ينبغي أن تكون دار السلام، ويحتاج في حاجة إلى التزود للسفر وهو في كدح وكبد ما لم ينته إلى دار القرار، كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ .

والناس في طلبها على ضربين :

ضرب انصرفوا عن طلب الآخرة و ركنوا إلى الدنيا و قالوا ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ وطلبوا الراحة فيها من حيث لا راحة ، أي أنهم في أعمالهم وسلوكهم يبتغون من الدنيا « ما ليس من طبيعتها، ولاموجودا فيها ولها » (٣٩) .

ونفهم من رأي الأصفهاني انحراف هذا الموقف من الناحية الأخلاقية، لأن أصحابه يسعون في تصرفاتهم نحو غاية لن تتحقق، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ .

أما الضرب الثاني من الناس، فهم الذين عرفوا أنهم يعيشون في الدنيا بصفة مؤقتة كما قال سبحانه ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ومن ثم فقد أصبح الدافع لهم في أعمالهم التزود لدار الخلود فاغترفوا من الزاد الروحاني : كالمعارف

والحكم والعبادات، والأخلاق الحميدة، لأنهم على يقين من الحصول على ثمرته وهي الحياة الأبدية، إن الاستكثار من هذا الزاد محمود « ولا يكاد يطلبه إلا من قد عرفه وعرف منفعته »[٤٠] .

ولم ينس هذا الفريق من النا س في الوقت نفسه نصيبه من الدنيا ، فتزود بالزاد الجسماني : كالمال، والاثاث ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾، وغايتهم ان يستعينوا به على الحياة الدنيويةالفانية ، اذ من طبيعة هذا الزاد ان يسترد من الإنسان بعد مفارقته للدنيا ، فلا ينبغي الركون إليه و الاستغناء به عن الزاد الروحاني اللازم للآخرة ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ و يخشى على المستكثر منه ان يثبط صاحبه عن مقصده، يقول الراغب « والاستكثار منه ليس بمذموم ما لم يكن مثبطاً لصاحبه عن مقصده، وكان متناولاً على الوجه الذي يجب وكما يجب »[٤١].

ويقصد بالشق الثاني من عبارته التقيد في المعاملات على مقتضى الشرع .

وقد تقصر نفس المرء عن الجميع بين الأمرين، وهنا يجب الاهتمام بما يبقى وتفضيله عما ينبغي، أي ايثار الآخرة على الدنيا، و لا يأخد من الثانية إلا بما يبلغ به دار الخلود، بشرط مراعاة حكم الشرع و المحافظة على قول الله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[٤٢] .

ويحرص مفكرنا الأخلاقي على أن يستخدم الإنسان قواه التي فطر بها للوصول إلى أشرف مراتب السعادةو أعلاها ، و هي السعادة الأخروية الجديرة بأن تعد السعادة الحقيقية، و التي لا سبيل إليها إلا باكتساب الفضائل، ولذلك قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[٤٣] .

وتكتسب الفضائل باستخدام القوى الثلاث التي خص بها الإنسان، اي السعي في استخدام القوى الشهوانية في ممارسة الشرع و استعمال القوة الغضبية في المجاهدة التي تحميه، وقوته الفكرية لتحصيل العلم الذي يهديه وعليه الا يركن إلى الخمول

والكسل، بل أن يعمل بقول القائل « إن أردت أن لا تتعب فاتعب لئلا تتعب » فإن الإنسان أسمى من الحيوان، وإذا كان للحيوان قوة التحرك سعياً لطلب الرزق، فللإنسان قوى العقل الذي إن لم يستخدمه، فقد أبطل كل نعمة أنعمها الله عليه، ويصبح وجود العقل عبثاً لأن النفس تتبلد بترك التفكير والنظر، كما يتبلد البدن بتعود الرفاهية بالكسل، « فحق الإنسان أن لايذهب عامة أوقاته إلا في إصلاح أمر دينه ودنياه وموصلاته إلى آخرته مراعياً لها »[٤٤] .

ونرى الأصفهاني مصوراً الإنسان في حركة دائمة ساعياً نحو غايته، فهو على سفر، ومقصده الدار الآخرة، حيث تتحقق له السعادة الدائمة بل إنه يستخدم لفظ (التحريك) مُعبراً عن هذا التصور للإنسان في حركته، نحو الآخرة، ويستند إلى الحديث « سافروا تغنموا » فإنه في رأيه يحث على التحريك إلى يثمر جنة المأوى، ومصاحبة الملأ الأعلى ، ومجاورة الله تعالى وهي أسمى الغايات .

ولكن الإنسان في سعيه هذا يحتاج إلى خمسة أشياء : معرفة المعبود المشار إليه ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ ومعرفة الطريق المشار إليه بقوله ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ وتحصيل الزاد المتبلغ به المشار إليه بقوله ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ والمجاهدة في الوصول كما قال تعالى ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ وبهذه الأشياء يأمن الغرور الذي خوفه الله تعالى منه في قوله ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[٤٥] .

ثانياً : ما تطهر به النفس :

يقسم الراغب الأصفهاني من حيث الأغراض التي تحققها، والأفعال التي تختص بها، كالبعير خصص ليبلغنا وأثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس، والفرس لنصل به إلى غايتنا في سرعة ويسر، والمنشار لإصلاح المصنوعات الخشبية وغيرها والباب لتدخل به إلى المنزل ...إلخ .

وبالمثل فإن للإنسان ثلاثة أفعال تختص به وهي :

ـ عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ لتحصيل المعاش لنفسه ولغيره .

ـ عبادته المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ اي الامتثال لله سبحانه في عبادته في أوامره ونواهيه .

ـ خلافته المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[٤٦] .

ولا يستحق الإنسان الخلافة إلا بتحري مكارم الشريعة، وهي الحكمة والقيام بين الناس في الحكم والإحسان والفضل، والغرض بلوغ جنة المأوى .

ولما كان شرف الأشياء بتمام تحقيق الغرض من وجودها ودناءتها بفقدان ذلك المعنى، فإن الفرس إذا لم يصلح للعدو اتخذ حمولة، والسيف إن لم يصلح للقطع اتخذ منشارا، وبالمثل فمن لم يصلح من الإنسان لتحقيق ما لاجله أوجد، فالبهيمة خير منه، ولذلك ذم الله تعالى الذين ثكلوا هذه الفضيلة ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[٤٧] .

وتحري مكارم الشريعة يحتاج إلى ان يصلح الإنسان نفسه أولاً بتهذيب نفسه قبل غيره، حيث ذم الله تعالى من يأمر غيره بالمعروف وينهاه عن المنكر وهو غير مهذب في نفسه فقال سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ○ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وتبدأ مكارم الشريعة بطهارة النفس بالتعليم للتوصل إلى الحكمة، ثم العفة للتوصل إلى الجود، والصبر ليدرك الشجاعة، والحلم والعدالة لتصحيح الأفعال .

وباستعمال هذه الدرجات فإنه أصبح المعنّي بقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وصلح لخلافة الله عز وجل .

ويظهر لنا من التفرقة بين مكارم الشريعة والعبادات، ان العبادات فرائض معلومة ومحددة، وتاركها يصبح ظالماً، بينما المكارم درجة أعلى من العبادات، ولذا فإن اداء

العبادات من باب العدالة، ولكن التحري بمكارم الشريعة من قبيل النفل والأفضال[٤٨] .

وهكذا فإن الراغب الأصفهاني يضع مستويات أخلاقية لأعمال الإنسان، فالعدل فعل ما يجب، والتفضل الزيادة على ما يجب .

كذلك لا يصلح لخلافة الله، ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس، فكما أن للبدن نجاسة، فكذلك للنفس نجاسة، الأولى تدرك بالبصر والثانية تدرك بالبصيرة، وإياها قصد تعالى بقوله ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ أو بقوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾، كما أشار سبحانه إلى طهارة القلوب بقوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ وقوله ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ﴾ .

ومن الآيات أيضاً التي تتضمن معنى التطهر قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ وقال ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٤٩] .

ولكن كيف يتم تطهير النفس في رأي مفكرنا الأخلاقي حتى يصبح الإنسان مرشحاً لخلافة الله تعالى، مستحقاً به ثوابه ؟

يرى أن العلم والعبادات هما المطهران للنفس، إذ أن أثرهما في النفس كأثر الماء الذي يطهر البدن[٥٠] وأدلته على ذلك الآيات القرآنية التي يفسرها بهذا المعنى مثل قوله تعالى ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ وقوله ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ .

فالآية الأولى تدل على أن حياة النفس في العلم والعبادة .

أما الآية الثانية فقد فسّرها ابن عباس بأن الماء يعنى به القرآن، لأن به طهارة النفس، والأودية هي القلوب التي احتملته بحسب ما وسعته[٥١] .

والذي يلزم تطهيره من النفس القوى الثلاث : قوة الفكر بتهذيبها حتى تحصل

الحكمة والعلم - والحكمة هي أشرف منزلة العلم[٥٢] لأنها العلم والعمل به، ولهذا وصف الله تعالى الذين ليس لهم علم صحيح، ولا عمل على الطريق المستقيم بقوله ﴿ وإذا قيل لهم اتَّبعوا ما أنزل اللهُ قالوا بل نتَّبعُ ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون ﴾[البقرة الآية: ١٧٠] .

فالعقل يقال بالإضافة إلى المعرفة والاهتداء بالإضافة إلى العمل[٥٣] وتهذيب قوة الشهوة بقمعها لكي تكتسب العفة والجود، ويتم إخضاع قوة الحمية باستيلاء العقل عليها حتى تنقاد فيحصل الشجاعة والحلم« فيتولد من اجتماع ذلك العدل »[٥٤] .

العقل والهوى :

تدور أفكار الراغب الأخلاقية حول تأكيده لازدواج الطبيعة الإنسانية، والنزاع الدائر بين العقل وقوى النفس، ولا يصير الإنسان إنساناً إلا إذا كان العقل سائساً تخضع قوى النفس لسلطانه، ويشبه العقل بالوالي الذي إذا تزكى وساس الناس بسياسة الله صار ظل الله في الارض، وكما أمر الوالي أن يجاهد أعداء المسلمين ﴿ وأَعِدُّوا لهم مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ ومن رِّباط الخيل تُرهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم ﴾ فإنه ينبغي على العقل أن يعادي الهوى، وكما ينبغي على الوالي أن يسالم الاعداء إذا لم يقو عليهم، ولكن عليه الا يركن إليهم تنفيذاً لامره تعالى﴿ وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها ...﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار ﴾« كذلك يجب للعقل أن يسالم الأشرار من قوى النفس إذا عجز عنها وأن لا يركن إليها »[٥٥] .

فإذا قوى العقل على النفس التي تعاديه بقوى رديئة من الهوى والشهوة والحسد طالبة للفساد، فعليه أن لا يداهنها، شأنه في ذلك شأن الوالي الذي ينبغي عليه إذا أحس بالقوة أن ينقض العهد، ويظهر المعاداة، ووسيلة العقل إلى هدفه التحصن بالإيمان والاستعاذة بالله[٥٦] .

وهكذا فإن التنازع بين العقل وقوى النفس دائم بينهما، يصوره الأصفهاني أحياناً

في حالة الحرب، وفي حالة السلم فإنه يضع ترتيباً تنازلياً يبدأ فيها بالقوة العاقلة التي يبدأ فيها بالقوة العاقلة التي تستضيء بنور الشرع، ثم يجعل قوى النفس متفاوتة بحيث تخضع لسلطان مافوقها وتأمر مادونها « فحق القوة الشهوانية أن تكون مؤتمرة للقوة الغضبية » وحق القوة الغضبية أن تكون مؤتمرة للقوة العاقلة، وحق القوة العاقلة أن تكون مستضيئة مؤتمرة لمواسمه »[٥٧] .

وينتقل إلى بيان طبيعة كل من العقل والهوى، فإن العقل يختار دائماً الأفضل في العواقب، وإن كان شاقاً على النفس، بينما الهوى يؤثر ما يدفع به الأذى العاجل غير ناظر في العواقب، ولهذا قال النبي ﷺ :« حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات » . والعقل في حكمه يرى ما لصاحبه وما عليه، ولكن الهوى يقتصر على رؤية ماله فقط ويعمى عليه ما يعقبه من المكروه بينما أكثر الخير في الكراهة كقول الله تعالى ﴿ عَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ وقال ﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾، ويقوى العقل إذا فزع إلى الله تعالى بالاستخارة، أو طلب العون من العقول الصحيحة بالاستشارة، وينشرح له الصدر إذا استعان بالعبادة ولكن ما يراه الهوى فبالضد من كل هذا .

وإذا تنازع العقل والهوى في أمر من الأمور ولجأ إلى قوة أخرى مدبرة بادر نور الله عز وجل إلى نصر العقل، ووساوس الشيطان إلى نصر الهوى[٥٨] .

والآيات القرآنية كثيرة في النهي عن الهوى في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وقال تعالى في ذم من اتبعه ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ وقال ﴿ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ .

وقال عز وجل في مدح من عصى الهوى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

ولكن من سلطان العقل على الهوى، فإن العقل في حاجة دائمة إلى الشرع، فإنه لن يكمل « بل لا يكون عقلاً إلا بعد اهتدائه بالشرع »[٥٩]، فإن العقل لا يعرفنا أن

لحم الخنزير والدم والخمر محرم، وألا يجب الزواج من ذوات المحارم وأشباه ذلك التي لا سبيل إليها إلا بالشرع « فالشرع نظام الاعتقاد الصحيح والافعال المستقيمة، والدال على مصالح الدنيا والآخرة »(٦٠) وقد جاء الرسل لهداية الخلق إلى هذا الحق، ولهذا قال تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾.

وهما أيضاً يتلازمان، فكان العقل هو رسول الله من الباطن الذي يعرف به الإنسان صحة دعوى الرسول الظاهر، وقد أحال الله تعالى من شكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل، وتجتمع أسباب الهداية والسداد لمن يجمع بين الاثنين فينطبق عليه قول الله تعالى ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾(٦١).

السعادة :

يطلق الراغب الأصفهاني السعادة الحقيقية على الخيرات الأخروية، أما تسمية غيرها بهذا الاسم، فإما لكونه على ذلك، أو نافعاً فيه « وكل ما أعان على خير وسعادة فهو خير وسعادة »(٦٢).

ولهذا فإن سعي الإنسان يجب أن يتجه لتحقيق هذه السعادة، حيث البقاء بلا فناء، والعلم بلا جهل، والقدرة بلا عجز، والغني بلا فقر.

ولكن الوصول إليها أمر بعيد المنال ولا يتم إلا باكتساب الفضائل النفسية وهي أربعة أشياء « العقل وكماله العلم، والعفة وكمالها الورع، والشجاعة وكمالها المجاهدة، والعدالة وكمالها الإنصاف »(٦٣) ولذلك قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ فنبه انه لا مطمع لمن أراد الوصول إليها إلا بالسعي(٦٤).

وللإنسان سعادات أبيحت له في الدنيا، وهي النعم المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ ولكن الفرق بين النعم الدنيوية والأخروية، هو أن الأولى تبيد، بينما الثانية دائمة لا تبيد.

والنعم الدنيوية تكون نعمة وسعادة إذا تناولها الناس على الوجه الذي جعل الله لهم، فاصبحت لهم نعمة وسعادة، وهم الموصوفون بقوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وهناك فريق آخر ركنوا إليها فاصبحت عليهم نقمة فتعذبوا بها عاجلاً وآجلاً، وهم الموصوفون بقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [٦٥] .

واللذات الاخروية لا تدرك بالعقل في هذه الدنيا لانه يقصر عن معرفتها، ولهذا فقد قرب الله سبحانه تلك اللذات في الاذهان فشبهها لهم بأنواع ما تدركه حواسهم فقال تعالى ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ . وقوله عز وجل في اول هذه الآية ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ يدل على ان ذلك تصوير وعلى سبيل التشبيه[٦٦] .

ولئن كان الموت هو الذريعة إلى السعادة الكبرى، وان الإنسان لن يطلع على سعادة الآخرة إلا بعد مفارقته لهذا الهيكل ان يزيل الامراض النفسانية المشار إليها بقوله تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ لكي يطلع « من وراء ستر رقيق على بعض ما أعد له »، وقد حدث هذا الحارثة الذي قال للنبي عزفت نفسي عن الدنيا، فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وأطلع على أهل الجنة يتزاورون، وعلى أهل النار يتعاوون، وفي رواية أخرى : كأنّي أسمع عواء أهل النار (أي صياحهم) .. فقال له النبي ﷺ « عرفت فالزم »[٦٧].

السعادة الاخروية إذن هي الجديرة بالسعي والعمل ، ولا يجب على الإنسان ان ييئس إذا حرم من نعم الدنيا بالرغم من محاولاته ودعواته وابتهاله إلى الله، بل عليه ان يعلم أن نعمته فيما يمنعه من دنياه، كنعمته فيما خوله واعطاه [٦٨] .

ولا يعد فقدان النعيم الدنيوي خسارة بل هو على سبيل الاختبار والابتلاء، إذ قال

تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ فإن هذه الآية مشتملة على محن الدنيا، كما بيّن تعالى ما للصابرين عنده بقوله ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ أي الذين إذا أصيبوا بهذه البلايا ﴿ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ ﴾، أي أننا ملكاً لله وخلقنا له، فلا يجب المبالاة بالجوع، لأن رزق العبد على سيده؛ فإن منع وقتاً فلابد أن يعود إليه، وأموالنا وأنفسنا وثمراتنا ملك لله، فله أن يتصرف فيها بما يشاء ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ في الدار الآخرة، فيحصل لنا عنده ما فوته علينا [٦٩].

والمصاب يهون عليه الخطب متى عرف أنه راجع إلى ربه، متذكراً نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأن ما لديه منها أضعاف ما استرد منه.

أما الخاسر المطلق فهو الذي خسر نعيم الأبد، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الزمر الآية: ١٥] [٧٠].

تم بحمد الله وتوفيقه [*].

(*) سبق نشر هذا البحث بكتابنا (الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام) دار الدعوة بالاسكندرية ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

وقد أعدنا نشره هنا لصلته الوثيقة بروافد ثقافة المسلم المعاصر، المطالب بالتأليف بين قيم التراث والمعارف المعاصرة.

(١) محمد إقبال ـ تجديد التفكير الديني في الإسلام ص١٦ .
ـ ومما يذكر عن الغزالي أنه كان دائم النظر في كتاب (الذريعة)، كما نقل منه الكثير، (د. محمد يوسف موسى ـ فلسفة الأخلاق في الإسلام ص٦٩) .
(٢) أحمد عطية الله ـ القاموس الإسلامي ص ٤٧٢ المجلد الثاني ـ مكتبة النهضة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.
(٣) الذريعة ص٣٢ .
(٤) ن . م ص ١١٣ .
(٥) ن . م ص ١٢ .
(٦) ن . م ص ١٩ .
(٧) الذريعة ص ٩٩ .
(٨) الذريعة ص ١٢١ .
(٩) محاضرات الأدباء جـ١ ص ٢٠ .
(١٠) الذريعة ص ١٢٨ .
(١١) الذريعة ص ١٢٧ .
(١٢) ن . م ص ١٠١ .
(١٣) تفضيل المنشأتين ص ١٧ .
(١٤) الأصفهاني : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ١١ .
(١٥) القاسمي : محاسن التأويل جـ ٢ ص ٢٨٣ .
(١٦) ن . م ص ١٠٩ ، ٥١٠ .
(١٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٩ .
(١٨) ن . م ص ٤٧ .
(١٩) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٤٩ .
(٢٠) ن . م ص ٧٢ .
(٢١) الأصفهاني : تفضيل النشأتين ص١٥ .

(٢٢) ن . م ص٣٠ .
(٢٣) ن . م ص ٥٤ .
(٢٤) الراغب الأصفهاني : تفضيل النشأتين ص ١٩، ٢٠ .
(٢٥) ن . م ص ٣٠ .
(٢٦) ن . م ص ٣١ .
(٢٧) ن . م ص ٣١ .
(٢٨) ن . م ص ٣١ .
(٢٩) الأصفهاني : تفضيل النشأتين ص ٣١ .
(٣٠) ن . م ص ٣٢ .
(٣١) ن . م ص ٥٤ .
(٣٢) ن . م ص ٥٤ .
(٣٣) ن . م ص ٥٤ .
(٣٤) بين النشأتين ص ٤٥ .
(٣٥) ن . م ص ٤٨ .
(٣٦) تفسير القاسمي جـ٢ ص٢٧٤ .
(٣٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٤ .
(٣٨) الراغب الأصفهاني : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٩ .
(٣٩) الراغب : تفضيل النشأتين ص ٣٩ .
(٤٠) الراغب : تفضيل التشأتين ص ٣٩
(٤١) ن . م ص ٤٠ .
(٤٢) تفضيل النشأتين ص ٤٠ .
(٤٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٨ .
(٤٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ١٥١ .
(٤٥) ن . م ص ١٥٢ .
(٤٦) الراغب الأصفهاني : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ١٨ .
(٤٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ١٨ .

(٤٨) ن . م ص ٢٠ .

(٤٩) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٠ .

(٥٠) ن . م ص ٢١،٢٢ .

(٥١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٢ .

(٥٢) تفسير القاسمي جـ٢ ص ٢٦ .

(٥٣) تفسير القاسمي جـ٣ ص ٣٧٤ .

(٥٤) الذريعة ص٢٢ .

(٥٥) تفضيل النشأتين ص ٢٢ .

(٥٦) ن . م ص ٢٢ .

(٥٧) تفضيل النشأتين ص ٢١ .

(٥٨) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٥ .

(٥٩) تفضيل النشأتين ص ٤٤ .

(٦٠) ن . م ص ٤٣ .

(٦١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٧٠ .

(٦٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٥ .

(٦٣) ن . م ص ٣٥ .

(٦٤) ن . م ص ٣٨ .

(٦٥) تفضيل النشأتين ص ٣٥،٣٦ .

(٦٦) ن . م ص ٣٧ .

(٦٧) ن . م ص ٣٨ .

(٦٨) تفسير الناس جـ٣ ص ٤٣٤ .

(٦٩) ن . م جـ٢ ص ٣٢٦ .

(٧٠) ن . م ص ١٤٩ .

الفهـرس

الفهـرس

